الامثال العربية القديمة

مصادرها - توثيقها - اهمية دراستها

عفيف عبدالرحمن
جامعة اليرموك - الأردن

الملخص

تهدف هذه الدراسة الى البحث في مصادر الامثال العربية القديمة، وتوثيقها، ثم دراسة اهمية هذه الامثال التي تكمن في قدرتها على رصد الحياة العربية بشتى مجالاتها الفكرية العقلية، والاجتماعية، والاقتصادية وكان لابد للباحث ان يسلك الخطوات التالية ليصل الى النتائج المرجوة.

بدأ البحث بمقدمة تناولت الامثال بشكل عام واهميتها ودلالاتها الاجتماعية والفكرية، وتشابه بعضها عند معظم الامم لانها تصدر عن مشاعر وحاجات انسانية يتشابه فيها الجميع، فهي ملك تلك للانسانية جمعاء وإن اختلفت صيغتها واساليبها.

وانتقل البحث بعد ذلك الى محاولة مفهوم المثل عند غير العرب، وخلص الى أن المفهوم يكاد يكون عاماً لجميع الامثال عند جميع الامم. و بعد ذلك انتقل الى مفهوم المثل عند العلماء العرب وفي معاجم اللغة، وخلص من هذه التعريفات جميعاً الى خصائص عامة تميز بها المثل العربي وهى أنه قول سائر يتضمن تشبيهاً وانه يحتاج الى خصائص فنية لتساعده على سرعة الانتشار، وان المثل العربي حكمة العربي ومعرفته. ومن الصفات التي يجب أن يتحلى بها: ايجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه.

وانتقل البحث بعد ذلك الى البحث في وسائل وصول المثل الينا عن طريق الرواية الشفوية اولا ثم التدوين، وعرض الى صلة المثل بأيام العرب والشعر الجاهلي. ولذا فان الذين جمعوا الشعر ودونوه هم انفسهم الذين جمعوا المثل ودونوه ووثقوه. وهم طبقة العلماء.

وتحدث البحث بعد ذلك عن مراحل تدوين المثل وميزة كل مرحلة ورجالاتها والكتب التي الفت. وانتقل بعد ذلك الى محاولة التعرف الى المشكلات التي تواجه البحث في الامثال، وكيفية التغلب عليها.

واخيراً خصص الجزء المتبقي للبحث في الظواهر البارزة في الامثال والتي تحتاج الى رصد، واختار منها ثلاثاً جعلها ميدان البحث وهي: افعل التفضيل، والحيوان، ومدى تصوير الامثال للحياة العربية.

وكان سبيل الباحث في كل ما عرض التمثيل لما ذهب اليه بأمثال موثقة لتؤيد ما يعرض له أو يفترضه. وان هذا البحث هو البداية فالامثال ميدان بكر يحتاج الى بحوث موسعة لكل ظاهرة فيها.

تعد دراسة الامثال ذات فائدة عظيمة، فبالامثال تسافر أفكارنا في رحلة الى الماضي خلال العصور الى عصر طفولة العالم لنرى انه مهما تغيرت المؤثرات البيئية والمناخية والاقتصادية وغيرها فان دوافع الافعال تبقى ثابتة بينما المظاهر المادية الحضارية تتغير. وبمعنى اخر فان شمس الصحراء العربية المحرقة، وثلوج سيبريا، وغابات افريقيا، لا تغير افكار الناس ومواقفهم من المشكلات الكبرى التي تقلقهم.

وهكذا نجد أن امثال كل شعب من هذه الشعوب وان اختلفت صيغه واشكاله التعبيرية، إلا أن الفكرة تتشابه في جميعها حول مشكلة أو موقف مصيري يعنيه كانسان.

وإن دراسة مقارنة لمجموعة من الامثال تتناول فكرة ما عند اكثر من شعب تستطيع ان تؤكد هذه الحقيقة. ولنضرب لذلك بمثال بسيط فقد جاء في الامثال العربية القديمة: كمستبضع التمر الى هجر (الميداني، ١٩٥٥) ١٥٣/٢ و يضرب لمن يحاول ان يروج لفكرة او سلعة عند من ينتجها أو يصدرها أو يفقهها اكثر منه. وجاء في الامثال الانجليزية Carrying Coals to Newcastle (Hulme 1902: 2) ومعناه كمن يحمل الفحم الحجري الى نيوكاسل التي تشتهر به. وفي العصور الوسطى نسمع هذا المثل الشائع: Send Indulgences to Rome (Hulme 1902: 2) ومعناه الى يرسل العدل الى روما. وقبل الميلاد بقرون يشتهر المثل التالي في اوساط اليونانيين: Owls to Athens.

ولعل هذه الامثال التي سقناها تشير الى حقيقة هامة ينبغي ألا تغيب عن بال من يتصدر لدراسة امثال امة من الامم وهى أن قدراً كبيراً من الامثال المتداولة هى ملك للانسانية جمعاء وانها مشتركة بين جميع الشعوب وان اختلفت صيغها واساليبها و بعض مكوناتها المادية و يتصل بهذه الحقيقة حقيقة اخرى وهى ان اية محاولة لتصنيف الامثال ونسبتها الى امة او شعب بعينه انما هو امر بالغ الصعوبة، و يصل الى درجة الاستحالة.

والفكرة التي يحملها مثل ما في لغة ما تظل مفهومة منذ الاف السنين حتى يومنا هذا لا تتبدل ولكن الذي يتغير صورتها التعبيرية. وتتناقل الاجيال هذه الفكرة من جيل الى جيل، ومن فم الى فم قبل أن يعرف الانسان الكتابة فيقوم بتدو ينها.

وفي رأينا ان الامثال لم تحظ في دراساتنا الادبية المعاصرة من قبل الباحثين بما يوازي قيمتها وأهميتها، وعلى العكس من ذلك نرى أنها نالت من اهتمام الباحثين في الامم الاخرى اكثر مما هو عندنا. وفي الوجه المقابل فان اجدادنا قد اهتموا بها ودونوها وصنفوها وذلك ما سنعرض له بعد قليل في هذا البحث. ولكن علماءنا القدامى لم يتناولوها بالدراسة والتحليل كما فعل غيرنا بأمثالهم بل اكتفوا بجمعها وتدو ينها وتصنيفها وشرحها.

والسبب في ذلك ان دراسة الامثال لامة من الامم او لشعب من الشعوب تعترضها عقبات وصعوبات كثيرة، واول تلك الصعوبات يكمن في تحديد المثل وتعريفه اصطلاحياً ليسهل على الباحث معرفته و يليه التمييز بين المثل والحكمة والقول المأثور او السائر. و يواجه الباحث بصعوبة تحديد بيئة المثل الاولى و يتصل بها قائل المثل . ولا تقل مشكلة تحديد صيغة المثل وما يعتورها من تحريف أو تصحيف على يد رواته حتى وصل الى فترة التدو ين، وكذلك القصة المتصلة بهذا وما يواكبها من انتحال أو ضياع أو تلفيق و يشكل غموض المثل متمثلا في مضمونه او لغته أو شدة ايجازه عقبة لا يسهل عليها تجاوزها.

* * *

ولكن هذه الصعوبات وغيرها ليست مبرراً كافياً لاهمال دراسة الامثال

دراسة مستفيضة متعمقة، و بخاصة في عصرنا هذا لما لدراستنا من اهمية كبرى في فهم فجر الحياة الاولى للامم، ومحاولة الوقوف على جوانب من تاريخها، وتراثها الشعبي، وعاداتها، وتقاليدها، ومعتقداتها، وقيمها التي امنت بها وتمثلتها قولا وعملاً. فهى اي الامثال، الانغام الصغيرة للشعوب، ينعكس فيها الشعور والتفكير، وعادات الافراد، وتقاليدهم على وجه العموم، كما يظهر فيها بصورة حية الطبقات الاجتماعية عند الشعوب على وجه الخصوص (زولهايم، ١٩٧١: ١٣) و يراها اخر بأنها فلسفة الحياة الاولى، ولها في تاريخ الفكر اهمية لا يدركها الا من تعمق في دراسة نفسية الشعوب ودراسة التطور الفكري عند البشر (ضيف: ١٦).

ولا تتوقف دراسة الامثال على امثال الامم في مراحلها التاريخية الاولى، وان كانت تلك اولى بالاهتمام بالدرس، والسبب في ذلك غياب التدو ين وعدم انتشار الكتابة، وان وجد التدو ين والكتاب فهو معنى بالدرجة الاولى بتاريخ الدول وسلوكها وتخليد انتصاراتها. أما الحياة الاجتماعية والعقلية وحضارة الامة فذلك ما لا تمسه تلك النقوش او الكتابات التاريخية الا مساً خفيفاً لا يكشف عن طبيعة تلك الحيوات. ان النقوش والكتابات التاريخية او السياسية او الفلسفية ان وجدت لا تحدثنا عن تجارب الامة وحياتها وهمومها والامها وطموحاتها. اما الادب الرسمي، ان صحت التسمية، من شعر وقصة وغيرذلك فانه لا يستطيع ان ينقل لنا ذلك كله بالرغم من انه لا يخلو من اشارات طفيفة.

ولكن الامثال التي ينطق بها الناس، وتجيء بلسان واحد منهم، كما عبر عن ذلك (رسل) في تعريف المثل بأنه قول كثيرين وذكاء واحد منهم (Hulme 1902 : 6) هذه الامثال هى التي تستطيع ان تكون انغام الشعوب وتعكس شعور الجماعة وتفكيرهم وعاداتهم وتقاليدهم. فلم يكن يتيسر لنا ان نعرف ان المرأة في الجاهلية كانت تحتد على زوجها حين يتوفى حولا كاملاً لا تبرح بيتها ولو كانت مضطرة، لولا المثل: بعرة (الواحدي ١٩٧٥: ٧٦) حيث كانت، بعد انقضاء الحول، تفتح باب بيتها وتلقى بعرة في وجه اول كلباً تراه مدللة بذلك على أن احتمالها للعام لا يعدل اكثر من هذه البعرة. فهذا المثل المتمثل في كلمة واحدة استطاع ان ينقل هذه الشحنة من العادات والقيم التي كانت سائدة انذاك.

ان سرد تعريفات متعددة للمثل وردت على لسان مجموعة من العلماء والباحثين تلقى ضوءاً على ما نذهب اليه، وتبرز قيمة المثل الحقيقيةو والوظيفة التي يؤديها:

(فالدكتور جونسون)يعرفها بأنها جمل قصيرة يكررها الناس مراراً فتصبح اقوالا سائرة.

(وسانيسيوس) وهو من كتاب القرن الخامس يرى فيها ديمومة الفلسفة القديمة التي حفظت في اشكال وصور عدة بسبب ملاءمتها لنا للاستعمال والتداول.

و يراها (باكون) بأنها تعبر عن عبقرية وذكاء كما تعبر عن روح الامة.

وعرفها (اجر كولا) بأنها جمل قصيرة عبر بها القدماء عن الحياة.

و يتضح من هذه التعريفات وعي الباحثين على ان الامثال وسيلة نقل فلسفة القدماء عن الحياة بمفهومها الواسع. ولا اريد ان اطيل في ذلك فقد اختلفوا كثيراً في تحديد مفهوم المثل، وفهمه كل حسب ثقافته وفلسفته، ولكنهم لم يختلفوا في اهميتها. وقد حدد احدهم شروطاً لسيرورة المثل وانتشاره وانتقاله من عصر الى اخر وتتلخص هذه الشروط في: القصر، ووضوح اللغة، وعمومية في الاستعمال، واستعماله اسلوباً يسهل حفظه مشافهة، وقدمه، وصحته وصدق مضمونه. وهى شروط سنرى عندما نعرض للمثل العربي ان بعضاً منها قد نصّ عليه العلماء العرب.

وهذه الشروط او المواصفات تكاد تكون عامة للامثال كافة، لا تقتصر على امثال امة دون اخرى. و يتصل بعضها بأمور تتعلق بسهولة مناقلته بين الناس من جيل الى اخر كالقصر، والاسلوب، والصحة والصدق، وعموميته في الاستعمال. و يتصل الاخر بالجذور الاولى للامة، فوضوح اللغة و بساطتها، والقدم صفتان من صفات فجر حياة الامة. وقد يرى البعض ان اللغة كلما تقادم عهدها كلما ازدادت صعوبة، ذلك صحيح وخطأ في الوقت نفسه. هو صحيح اذا انقطع حاضر الامة عن ماضيه فتصبح اللغة القديمة مهجورة. وهو خطأ اذا فهمنا وضوح اللغة عكس الارتقاء وتطور دلالات الفاظها من المادية الى المجاز. فالوضوح هنا يعني البساطة ومادية الدلالة لا مجازيها.

وان نظرة فاحصة مستعصية للامثال في ادب امة ما يكشف المفردات اللغو ية الاولى او الجذور التي تشكلت منها تلك اللغة في اول عمرها، فهى مفردات تعبر عن المتطلبات الاساسية للامة، وعن عاداتهم واعرافهم وتقاليدهم، ومعتقداتهم. ولا تختص بذلك امة دون اخرى، فحاجات الامة في بداية حضارتها حاجات بسيطة، وفكرها فكر بسيط ساذج. ولعل هذا هو الذي جعل قاسماً مشتركاً بين امثال الامم على اختلاف اصقاعها.

وتتصل الامثال القديمة ودراستها بعلم نال حظاً وافراً من اهتمام الباحثين المحدثين، واعني به الميثولوجيا والاساطير والحكايات الخرافية التي تتعلق بمعتقدات كل امة وشعب، و بخاصة في الفترات التي لم يكن للاديان السماو ية انتشار او تأثير، فقد عبر الانسان عن عالمه المنظور وعالمه غير المنظور، وتلك القوى التي يخشاها او يعتقد انها تعينه، وتلك الظواهر التي لم يكن يجد لها تفسيراً، وذلك المجهول الذي كان يفزعه، عبر عن ذلك كله بحكايات واساطير كان للامثال نصيب وافر منها.

لقد عرف اليونان والرومان والهنود والفراعنة الامثال وضمنوها حكمهم ومخاوفهم ومعتقداتهم وكل ما كانوا يخشونه و يرهبونه، فأنطقوا الوحوش والطير والجماد والظواهر الطبيعية. ولم يكن العرب في جاهليتهم بعيدين عن هذا الاتجاه.

ومن اجل ذلك كله نرى ان الامثال فيها مادة للدراسة والبحث، وفيها عوالم لم تكتشف بعد، لان فيها الحقيقة كل الحقيقة عما تعتقده الامة، ولان ما فيها من اراء ذا قيمة عالية لانه ناتج عن تجربة، تلك التجربة التي نعتبرها اماً لجميع انواع المعرفة (Bowen 1976:7) ومما يساعد في ان تكون الدراسة متعمقة ونافعة الاستعانة بالمعارف المختلفة والدراسات والنظريات الحديثة ومنها الدراسات المقارنة التي تستطيع ان تكشف عن امور وقضايا مازالت حبيسة الكتب. فالامثال قيمة تراثية شعبية يمكن استعمالها كمفاتيح للاستعمالات والمعتقدات والعادات (Hulme 1902 : 16).

* * *

لقد عرف العرب منذ فجر حياتهم في الجاهلية الامثال، وصدرت عنهم،

قالها العامة، والحكيم، والمجرب، والشاعر، والفارس، والخطيب. وظلوا يتناقلونها مشافهة من فم الى فم حتى عصر التدو ين، وجاء الاسلام واستمر تدفق الامثال زيادة على الامثال الجاهلية واختلط المثلان الجاهلي والاسلامي، ويحل العصر العباسي فيحتك العرب بالشعوب الاسلامية الاخرى من غير العرب و ينتج لون جديد من الامثال متأثر بتلك الثقافات والحضارات، وهذه الحضارة الاسلامية الجديدة.

ونستطيع ان نميز مستو يات فنية ثلا ثة لامثالنا :

الامثال العر بية القديمة.

وهى التي جمعها علماء اللغة في القرنين الثاني والثالث من افواه ابناء العرو بة في مرابعهم ودونوها وشرحوها لغو ياً و وثقوها.

والامثال المولدة وهى الامثال التي درجت على السنة الناس فيما تلا ذلك من قرون. واخيراً **الامثال العامية الشعبية المعاصرة،** حيث نجد لكل شعب عر بي أو قطر امثاله الخاصة به. و ينبغي ان نقرر هنا ان هذه المستو يات لم تنفصل امثالها انفصالا لا نهائياً، بل نجد امثالا كثيرة جدت بسبب حاجات اجتماعية او اقتصادية جدت، ولكن كثيراً من الامثال استمر وجودها وان تغير شكلها الاسلو بي او مادة التشبيه.

ومادة هذا البحث ستكون من امثال المستوى الاول لاسباب: اولها انه يتضمن امثال فترة عزيزة علينا، ولكنها نزرة المصادر عنها، وهى الفترة الجاهلية، فلعلنا نجد من الامثال عوناً لنا في الكشف عن بعض اسرارها. والثاني: ان لغة هذه الامثال فصيحة وهو امر نحرص عليه دائماً. والثالث: اننا نعتقد ان هذه الامثال تشكل حجر الزاو ية الفكرية لاية دراسة عن الامثال العر بية في اي مستوى اخر لانها معين لتلك الامثال.

* * *

وفي البدء نعرج على المصادر القديمة لنرى كيف عرفوا المثل وكيف تعاملوا معه لان ذلك يكشف لنا عن سر اهتمامهم بالامثال، مما دعاهم الى تصنيف عشرات المؤلفات فيها.

فابن المقفع (الميداني ١٩٥٥: ٦) يرى ان الكلام اذا جعل مثلا كان اوضح للنطق وانق للمسمع، واوسع لشعوب الحديث. والمبرد (الميداني ١٩٥٥: ٥) يراه مأخوذاً من المثال وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالاول، والاصل في التشبيه، وحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبه بحال الاول.

وابو هلال العسكري (ت ٣٢٨ هـ) يرى أن اصل المثل التماثل بين الشيئين في الكلام، ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا. وقد يأتي القائل بما يحسن ان يتمثل به، إلا انه لا يتفق ان يسير فلا يكون مثلا. والامثال عند ابي عبيد القاسم بن سلام (ت ٣٣٨ هـ) حكمة العرب في الجاهلية والاسلام، و بها كانت تعارض كلامها فتبلغ ما حاولت فيها من حاجات في المنطق بكناية من غير تصريح (ابن سلام: ٣٤). واما الميداني (ت ٥١٨ هـ) فقد كان اوضحهم في فهم دور الامثال واهميتها حيث يقول في مقدمة كتابه «و بعد، فان من المعلوم ان الادب سلّم الى المعرفة بالعلوم، به يتوصل الى الوقوف عليها، ومنه يتوقع الوصول اليها، غير أن له مسالك ومدارج .. وان اعلى تلك المراقي واقصاها، أوعرها تيك المسالك واعصاها، هذه الامثال التي هي لماظات الضباب، ونفاثات حلبة اللقاح وحملة العلاب، من كل مرتضع در الفصاحة يافعاً وليداً» (الميداني ١٩٥٥: ٢).

اما الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ) فقد رأى فيها قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حكمها، و بيضة منطقها، وزبدة حوارها، و بلاغتها التي اعربت بها عن القرائح السليمة، والركن البديع الى ذرابة اللسان، وغرابة اللسن .. ولامر ما سبقت اراعيل الرياح (الزمخشري ١٩٦٢: ص . ب ــ ج).

وتنبه الحسن بن وهب الى اشتراك باقي الامم في ظاهرة الامثال لاهميتها، فقال ان الحكماء والادباء والعلماء يرون هذا النوع من القول، اي الامثال، انجح مطلباً، واقرب مذهباً، ولذلك جعلت القدماء اكثر آدابها وما دونته من علومها بالامثال والقصص عن الامم، ونطقت ببعضه على السنة الطير والوحش. وانما ارادوا بذلك ليجعلوا الاخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدسات مضمونة الى نتائجهات (ابن وهب: ١٤٥). و يعتبر السيوطي (ت ٩١١ هـ) الامثال من حكمة العرب في

الجاهلية والاسلام، و بها كانت تعارض كلامها فتبلغ ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية من غير تصريح (السيوطي: ١/٢٣٤).

واذا انتقلنا الى معاجم اللغة وجدنا في مادة (مثل) في لسان العرب لابن منظور: من معاني المثل: الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله. ومن معانيه ايضاً: العبرة.

ونستطيع ان نستخلص من هذه التعريفات والاقوال التي صدرت عن علماء كان لهم قصب السبق في الاهتمام باللغة وطرائق تعبيرها و بلاغتها ماهية المثل، ولماذا اختاره العرب وسيلة للتعبير؟ وما سر ذيوعه وانتشاره وديمومته؟ وما مضامينه؟ ويمكننا ان نستخلص ما يلي:

١ ــ ان المثل قول سائر، فقد يأتي القائل بما يحسن ان يتمثل به في موقف ما، ولكنه لا يتفق ان يسير، فلا يكون مثلا. ولعل هذا يفسر لنا ورود بعض الاحاديث الشريفة واقوال الصحابة ضمن مجموعات الامثال لانها اصبحت اقوالاً سائرة يتمثل بها الناس.

٢ ــ ان المثل يتضمن تشبيهاً، فقد رأوا ان المثل فيه قول سائر يشبه به حال الثاني بالاول، والاول هنا الظرف الذي قيل فيه المثل اول مرة. ويمر الثاني بالحالة نفسها فيستعيد المثل يضر به لشبه بين الحالين، ثم يأتي بعد زمن ثالث فيقوله، وهكذا يستخدم المثل في جميع الحالات المشابهة للحال الاولى.

٣ ــ ان الادب يعد سلماً الى معرفة العلوم، وان له مدارج ومسالك، ولكنهم رأوا في المثل وسيلة، والمثل شكل من اشكال الادب، وعدوا هذه الوسيلة اوعرها واعصاها لا يقدر عليها الا كل متمكن من اللغة.

٤ ــ ان الامم لجأت الى الامثال وارتبط كل مثل بقصة لانهم ارادوا ان يجعلوا الاخبار مقرونة بذكر عواقبها.

٥ ــ ان الامثال نوع من الكلام ليس وقفاً على فئة من الناس دون غيرها، بل تراضته العامة والخاصة.

٦ ــ ان الامثال نقلت وحملت حكمة العرب في الجاهلية والاسلام، والحكمة التي عنوها هنا خلاصة معرفتهم وتجاربهم ومنطقهم وحوارهم، اي انها تعني

تجربتهم في الحياة، ومواقفهم، بل لعلي لا اجافي الحقيقة اذا زعمت انها تعني فلسفتهم في الحياة.

٧ ــ انهم لجأوا الى المثل وسيلة في التعبير عن حاجات لانهم بذلك يكنون عما يريدون من غير تصريح، وذلك ابلغ في سلم الفصاحة، واقل احراجاً للسامعين، و يؤدي في الوقت نفسه الغرض المطلوب.

٨ ــ ان المثل يسبق الريح في سرعة الانتشار، وهذا ما شجعهم على استخدامه.

اما القرآن الكريم فقد وردت كلمة مثل في مواضع كثيرة، ولولا تأثيرها في الناس والعرب خاصة لما استخدمها عزّ وجل في التهديد والوعيد والترغيب والترهيب.

وان نظرة فاحصة لتعريف المثل عند العرب وعند غيرهم مما عرضنا لتؤكد لنا انه ليس من خلاف واسع بين تصور كل منهم للمثل و وظيفته وان كان العرب قد ركزوا على ربطه بالتشبيه، ولم يسهبوا فيما يحققه بل اكتفوا بأنه حكمة العرب.

* * *

ولقد عرض القدماء من خلال تعريفهم للمثل صفات رأوا انها مكنته من الانتشار بسرعة تفوق سرعة الرياح، وأن هذه الصفات تشكل شرطاً اساسياً له.

وتأتي في مقدمة هذه الصفات **ايجاز اللفظ**، وذلك لتيسير حفظه وتناقله بين الناس، وليحدث اثره في السامع، و بالرغم من ان الايجاز من سمات العربية إلا اننا رأينا ان هذا الشرط من شروط المثل في اي لغة من اللغات. وقد يصل الايجاز في العربية درجة يقتصر فيها المثل على أنه يكون كلمة واحدة كما مر معنا في المثل: «بعرة» (الواحدى ١٩٧٥: ٧٦) وربما على كلمتين نحو المثل: «مواعيد عرقوب» (الميداني، ١٩٥٥: ٢١١/١) و «هذه بتلك» (الواحدي، ١٩٧٥: ١١٢) و «اقتلوني ومالكا». ولكن هذا الايجاز لم يكن يعني دائماً قلة عدد الكلمات التي يتشكل منها المثل، فقد يطول المثل ليبلغ نصف بيت من الشعر او ما يوازيه طولا نحو «ما كل سوداء تمرة ولا كل بيضاء شحمة» (الواحدى، ١٩٧٥: ١٦١) وقد يصل الى درجة تجعله يشغل بيتاً من الشعر نحو:

لا تحمدن امرءاً حتى تجربه ولا تذمنه من غير تجريب

(البكري، ١٩٧١: ٧٧)

و يدفعنا هذا الى البحث عن مدلول اوسع لكلمة الايجاز، وفي ظني ان المقصود بها التعبير عن الفكرة في اضيق حيز ممكن. وقد تنبه ابن رشيق صاحب العمدة الى ذلك فقال بأن الامثال قد تأتي محكمة بالرغم من طولها شريطة أن يتولاها الفصحاء من الناس (ابن رشيق، ١٩٥٥: ١/٢٨١ ــ ٢٨٢).

والصفة الثانية الواجب توفرها في المثل **اصابة المعنى**، وهى شرط من شروط بقاء المثل ورواجه بين الناس، ولذا فقد ادرك علماء اللغة ان هذه الامثال لا يستطيع قولها أو فهمها إلا من كان على درجة عالية من البيان والفصاحة، وقد نص على ذلك صراحة الميداني والزمخشري في مقدمتي كتابيهما. وربط ابن رشيق بين ايجاز اللفظ واصابة المعنى، ورأي ان افضل الامثال اوجزها، واحكمها، واصدقها. وان المثل الشارد اي السائر لا يرد كالجمل الذي لا يكاد يعرض له ولا يرد. ولا تتم اصابة المعنى إلا باستخدام ادوات واساليب لغوية تحقق له تلك الغاية.

والصفة الثالثة للمثل **حسن التشبيه**، وذلك نابع من التعريف الاصطلاحي للمثل من أنه قول سائر يشبه به حال الثاني الاول، كما عبر عنه المبرد . ولكن هذا لايعني ضرورة ان يتضمن المثل شكلا من اشكال التشبيه، بل ان الحال التي ضرب بها المثل للمرة الاولى من قبل قائله تماثلها وتشابهها الحال الثانية التي يمر بها ضارب المثل بعد حين.

وهكذا فان لكل مثل شكلا تعبيرياً ينبغي ان يتصف بالايجاز، و يأتي بعد ذلك المغزى، أو المضمون الاخلاقي أو القيمة التهذيبية.

وقد عجز بعض المستشرقين (بلاشير، ١٩٥٦، ٢/٤٣٩) عن فهم الصلة بين الايجاز وذيوع المثل وانتشاره، وأن تلك السمة تساعد على الانتقال مشافهة وكتابة بين الخاصة والعامة، فربط بين الميل الى الصيغ المقتضبة في الامثال التي قد تصل الى درجة الغموض، و بين الروح العربية التي تتميز بالغموض احياناً.

ومن اجل هذه الخصائص فان الامثال **نوع من العلم** منفردة بنفسها، لا يقدر على التصرف فيه الا من اجتهد في طلبه حتى احكمه، و بالغ في التماسه حتى اتقنه، وان الرجل يحتاج الى امور في معرفتها، منها: «الوقوف على اصولها، والاحاطة بأحاديثها، بالاضافة الى العلم بغريب اللغة، والاجتهاد في الرواية، والتقدم في الدراية» (العسكري، ١٩٦٤: ٥) ومن اجل هذا فان اثرها يخفى للاسباب السابقة، ولا يظهر الا اقلها، و يبطن اكثرها (الميداني ١٩٥٥: ١/١) و يصبح الوقوف، عليها لا يملكه الا الكامل العدة والعتاد.

ولذلك فقد الح بعض جامعي الامثال الى ان الشروط السابقة لفهم مغزاها وادراك مراميها لا يتحقق الا في السلف الماضين الذين نظموا ما شملها من تشتت، وهذا ما نلاحظه عند دراسة كتب الامثال، اذ نحن امام سلسلة متصلة من العلماء والرواة وحذاق الادب وجامعية، تبدأ بالمفضل الضبي، بل قبله، وتمر بعلماء اللغة الى ان تنتهي بالزمخشري، وما بين اول السلسلة واخرها علماء اللغة المتمرسون بفنون البلاغة العربية واساليب الفصاحة ولكن ذلك كله لم يكن ليمنع الناس عامة الناس من تناقل هذه الامثال واستعمالها كلما دعت الحاجة، وذلك في وقت كانت السلامة سلامة اللسان العربي من اللحن، والسليقة اللغوية، تمكنان من الانسان العربي من تفهم المثل والتمثل به عند الحاجة.

* * * *

و يفسر هذا الذي ذهبنا اليه آنفاً من ان الامثال لا يمكن لانسان ما الاحاطة بها، والوقوف على اصولها بسبب صعوبات جمة، وان هذا الانسان ينبغي ان يكون متمكناً من اللغة واساليبها واسرارها اللغوية والبيانية، يفسر لنا هذا ان تدو ين الامثال العربية ابتدأ مع بداية تدو ين اللغة، وانه توقف او ضعف مع ضعف حركة تدو ين اللغة وجمعها وتصنيفها. و يفسر لنا كذلك ان الذين تصدوا للامثال بالجمع والشرح والتدو ين والتصنيف هم علماء اللغة، وان كتب الامثال مليئة بالاشارات اللغو ية وغريب اللغة والشواهد الشعرية، بل ان بعض كتب الامثال لم تغفل شرح الصور البيانية فيها، وان بعضها اختلطت فيه بعض اساليب العربية والعبارات

الفصيحة بالامثال، مثل كتاب المفضل ابن سلمه «الفاخر»، وكتاب الامثال للمؤرخ السدوسي، وكتاب الامثال لابي عكرمة الضبي، وكتاب الزاهر لابن الانباري.

ولم يتردد الزمخشري في ان يذكر في مقدمة كتابه «المستقصي» أنه اقبل على تأليفه «لما انس من تناهي فاقة الافاضل عن اخرهم الى استكشاف غوامضها والغوص على مشكلاتها، ولاسيما لمن انتدب لتدريس قوانين العربية وإقراء الكتب الكبار (الزمخشري، ٩١٦٢: ب).

فهل كان السبب في جمع الامثال وتدوينها هو هذه الشروح اللغوية فحسب؟ ام ان هناك دوافع اخرى وراء جمعها وتدوينها؟ وهل يعني قوله ان العرب لم يتنبهوا الى القيمة الحقيقية للامثال كتلك التي ادركتها امم اخرى؟

* * *

وللاجابة على التساؤلات السابقة لابد من العودة الى نقطة البداية، واعني بها اصل المثل العربي وبيئته الاولى، واعنى المجتمع الجاهلي، ثم اعود لاربط ذلك بعصر التدوين للمثل، لنرى ان كانت ثمة صلة بينهما. وتلك قضية كانت تؤرقني منذ وقت طويل، يوم كنت ابحث في الايام في العصر الجاهلي وشعرها في اطروحة الدكتوراه. وقد لاحظت وانا اتتبع اخبار الايام وقصصها الصحيح منها والمنحول، كنت اقع دائماً على ثالوث لا تنفصم عراه وهو: **اليوم** وما يتصل به من ارهاصات الحرب واسبابها ودوافعها، ثم **الشعر** الذي كان يقال في ذلك اليوم قبيله، وفي اثنائه، وبعده. ثم **المثل** الذي كان يصدر عن رجل امرأة من هذه القبيلة او تلك. ولكن ذلك لا يعني ان امثالا قد ولدت بعيدة عن جو الحرب ولكنها كانت متصلة بالقبائل او اهلها المنتشرين في اصقاع الجزيرة وصحاريها ووديانها. وان قراءة سريعة لكتاب **الميداني** او **المفضل الضبّي** أو غيرهما تؤكد هذا الذي ازعمه. ولنقرأ هذه الامثال:

اشأم من البسوس، اشأم من داحس، (٣) اعز من كليب وائل (٤)، البس لكل حال لبوسها، (٥) بؤبشسع نعل كليب (٦)، ترك الخداع من اجرى مائة غلوه، رو يدأيعلون الجدد، (٨) لامر ما جدع قصير انفه (٩)، اليوم خمر وغداً الامر (١٠).

ان اخبار ايام العرب في الجاهلية والاسلام مبثوثة في كتب الايام، حتى ان الميداني (١٩٥٥) افرد في كتابه باباً خاصاً للايام بالاضافة الى ما ورد منها في ثنايا الامثال.

وقد يبدو هذا الزعم مبالغاً فيه للوهلة الاولى، ولكن ايام العرب في الجاهلية هى التي اكتوى المجتمع الجاهلي بنارها سنوات طوالا، وعركته تلك الايام، وأخرت انصهاره في مجتمع واحد الى ان جاء الاسلام فوحدهم امة واحدة، وهذه الايام في الجهة المقابلة التي بلورت قيم المجتمع الجاهلي وتقاليده واعرافه، وصقلت مواهب فرسانه ومقاتليه، وهى التي انضجت افكاره ومثله، فكثرت الامثال التي تذم الجبن والبخل واللؤم والغدر، وغير ذلك من الصفات السلبية، وكثرت ايضاً في الوقت نفسه الامثال التي تمجد الشجاعة والكرم والحلم والعقل والوفاء الصدق وغير ذلك من القيم الايجابية.

ومن هذا المنطلق استنتج ان الايام هى التي انطقت الرجال والنساء امثالا تعبر عن تجارب معينة مر بها اولئك وليس ادل على ذلك من تقليب كتب الامثال لمعرفة قائليها، ان ذكروا، فهم من الذين كان لهم دور في تلك الايام. ولئن كانت هذه العجالة ليست كافية فان دراسة مفصلة لتلك الظاهرة وظواهر اخرى متصلة بالايام ارجو ان ترى النور قريباً معتمدة على استقصاء شامل للامثال.

ان الباحث المنصف ينبغي ألا ينظر الى الايام على أنها ظاهرة سلبية في المجتمع الجاهلي فحسب، فذلك وجه واحد لها، اما الوجه الاخر فايجابي لا يقل اهمية عن جانبها السلبي، فقد كانت البيئة التي خلقت وثبتت القيم الجاهلية الايجابية التي اقر قدراً وافراً منها الاسلام (١١) ولعل كتب الادب العامة كالاغاني والعقد وغيرهما خير شاهد على ما اذهب اليه.

وعودة الى ما بدأناه وهو الشق الثاني من السؤال، وهو بدء الاهتمام بالامثال وتدو ينها، فالامثال كالشعر الجاهلي، كلاهما لم يصل اي اثر منه مكتوباً في نص جاهلي، ولكن الفرق بينهما ان المثل بدأ جمعه وتدو ينه مبكراً قبل ان يجمع

الشعر الجاهلي و يدون ليظهر في مجموعات، فقد بدأ تدو ينها منذ اواخر القرن الاول وذلك لسببين:

أولهما: ارتباط المثل بحكماء العرب وكهانهم وفرسانهم و بالقصص، كل ذلك اغرى الاخباريين والقصاصين بتضمين اخبارهم بعض الامثال المتصلة بتلك الاخبار والقصص، لما تحدث من اثر في نفوس السامعين. ومن هؤلاء الاخباريين عبيد بن شريه الجرهمي اليمني (ت ٨١ هـ) الذي وصف بأنه اول من دون الكتب من العرب. وقد نسب اليه ابن النديم في «الفهرست» كتاباً في الامثال (ابن النديم، ١٩٧٩: ٨٩) ومنهم صحار بن العياش العبدي (ت ٨١ هـ)، وعلاقة الكلابي (كان حياً ايام يزيد بن معاو ية) الذي ينسب اليه ياقوت الحموي كتاباً في الامثال في خمسين ورقة (ياقوت، د.ت ١٢/١٩٠).

وثانيهما: ان حركة تدو ين الشعر تأخرت الى اواخر القرن الثاني للهجرة لاسباب منها انشغال العصر الاموي بالفتوحات، وازدهار الشعر السياسي، وتناقل الناس للشعر مشافهة، وعدم ظهور طبقة من العلماء يتولون ذلك.

ولكن الاهم من ذلك كله، وما اريد ان ازعمه هنا ان العصر العباسي شهد ظهور عوامل كثيرة عجلت بظهور حركة جمع الشعر الجاهلي والاسلامي، كما عجلت بتدو ين اللغة وتقعيدها، وعجلت كذلك بجمع الامثال على نطاق واسع وتدو ينها وتصنيفها وشرحها. واعنى بذلك حركة الشعوبية التي بدأت تطالب بالمساواة بين المسلمين، ثم ما لبثت ان كشرت عن انيابها، واشهرت سلاحها للطعن في العرب وفي اصلهم وفي حضارتهم، وجردت اقلامها وانبرت تنفث سمومها تطعن وتدس وتعيّر.

أما العامل الثاني فهو تفشي اللحن فخاف الغيورون على اللغة من التلوث بعد انتقال العرب الى بيئات جديدة ودخول اقوام ليسوا عر باً في الاسلام.

هذان العاملان كانا اساسيين في حفز الغيورين على اللغة والامة والتراث، فانبروا يردون على الالسنة الحاقدة بالبراهين والحجج والادلة، ولم يجدوا دليلا يؤولون

اليه خيراً من الشعر وما يتصل به من أخبار وقصص وامثال. وقد نص ابن سلام في «طبقاته» صراحة على ذلك حيث ذكره في المقدمة.

الاول: جمع وتدوين الشعر الجاهلي بخاصة، وبعض الشعر الاسلامي والاموي بعامة، وتمثل ذلك في الحماسة والمفضليات والمعلقات والاصمعيات وغيرها من المجموعات الشعرية. ونظرة فاحصة الى هذا الشعر الذي تضمنته المجموعات تشعرنا بما يحمله هذا الشعر من قيم فكرية واجتماعية واخلاقية، وبما يحمله من قصص وأخبار وايام كانت لهم. ولم يخل هذا الشعر من اللغة، وقد تنبه الى ذلك شارحو تلك المجموعات في العصور التالية.

الثاني: جمع اللغة وتبويبها في البداية في رسائل، ثم في معاجم، وكانوا يدققون ويمحصون ما يجمعون ويميزون صحيحه من منحوله، كما كانوا يتجشمون مشاق السفر الى القبائل في مواطنها الاصلية يسمعون منهم.

الثالث: جمع الامثال وتدوينها وشرحها مع قصصها التي ترتبط بها.

الامر المثير للاهتمام ان فريقاً واحداً من العلماء كان يتولى هذه المجالات الثلاثة، وهو علماء اللغة. وقد حرص جامعوا الامثال في المراحل المتأخرة على ذكر رواتهم، وأوردوا اراءهم المختلفة في المثل وشروحه اللغوية. وإن حصراً دقيقاً لكل من قام بجمع الشعر وتدوينه، وبجمع اللغة، وبجمع الامثال، يؤكد ان فئة العلماء امثال الضبي والاصمعي، وابن عمرو وابن السكيت وابن سلام وغيرهم هم الذين اخذوا على عاتقهم هذه المهمة. ولماذا نذهب بعيداً فلكثير منهم كتب في الامثال وكتب في اللغة وفي الوقت نفسه قام بجمع دواوين اكثر من شاعر أو قبيلة، او جمع واختار مجموعة شعرية. فالضبي له كتاب في الامثال وله المفضليات، وكذلك الاصمعي. ولم يخل كتاب في الامثال من شروح لغوية ولم يخل من استطردات لغوية ذات فائدة وانني ارى ان تغليب الجانب اللغوي جعلهم ينصرفون عن الاهتمام بقضايا ذات قيمة كبيرة في الامثال لو تنبهوا اليها.

* * *

وهكذا فان العرب شعروا بحاجتهم الماسة الى تدو ين الامثال وتصنيفها وجمعها ودراستها للرد على حركة الشعوبية التي حاولت ان تغض من قيمة ثقافة العرب وحضارتهم، ولان هذه الامثال كالشعر تماماً تحمل في طياتها قيماً انسانية خالدة تصلح لزمانهم وزمان غيرهم لالتصاقها الوثيق بالنفس البشرية، واخيراً لارتباطها باللغة من حيث هى شكل من اشكال التعبير اللغوي، وتحمل مفردات ذات دلالات نافعة في تعلم اللغة.

ونستطيع ان نتبين المراحل التالية في تدو ين الامثال :

المرحلة الاولى: كراسات تضم الواحدة مجموعة من الامثال محدودة العدد، وتبدأ هذه السلسلة بأبن عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ)، والمفضل الضبي (ت ١٧٠هـ)، وأبي فيد مؤرج السدوسي (ت ١٩٥ هـ)، وأبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ) والاصمعي (ت ٢١٢ هـ)، وأبي زيد الانصاري (ت ٢١٥ هـ) . ولم يصلنا من هذه المرحلة إلا كتابان هما : امثال الضبي وامثال السدوسي . وتنتهي هذهالمرحلة بنهاية القرن الثاني من الهجرة. وقد تميزت هذه المرحلة بالجدية العلمية، واتجهت العناية الى تسجيل الالفاظ العربية، والتراكيب الفصيحة، والنوادر. واصبحت الامثال مادة اساسية يجد فيها العالم ضالته من ناحية دلالة اللفظ عل المعنى، أو من الناحية التركيبية للجملة، واصبح المثل شاهداً لغو ياً ونحو ياً وأسلو بياً عند العلماء. وتميزت كذلك بحرص العلماء على التقاط المثل من بدو الجزيرة، موطنه الاصلي.

المرحلة الثانية: وفيها انتقل تدو ين المثل الى مرحلة جديدة تمثلت في جمع الامثال وتدو ينها وتصنيفها بحسب موضوعاتها. ولعل هذا يبرز قيمة مضامينها الانسانية. و يبرز هنا كتاب ابي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٣ هـ) وقد وسّع ابن سلام مدلول المثل فشمل الاقوال الحكمية. ومن الذين سلكوا هذا السبيل ولم تصلنا مؤلفاتهم.

ابن الاعرابي (ت ٢٣١ هـ)، وابن السكيت (ت ٢٢٤ هـ)، وابن حبيب (ت ٢٤٨ هـ)، والجاحظ (ت ٢٢٥ هـ) وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، وثعلب (ت ٢٩١ هـ).

و يبدو ان صعوبة التأليف على نحو ما فعل ابن سلام لم تشجع من جاء بعده.

المرحلة الثالثة: وتلت هذه المرحلة مرحلة الجمع الشمولي للامثال، أو مرحلة معجمات الامثال، وقد تميزت هذه المرحلة بجمع تراث الامثال الهائل، بعد أن كانت المراحل السابقة تقتصر على مئات منها فحسب.

وقد صنفت الامثال في هذه المرحلة في موسوعات عامة أو معجمات تميزت بالتنسيق والترتيب، حيث رتبت الامثال هجائياً بحسب الحرف الاول في الكلمة الاولى من المثل. ولكن الترتيب لم يكن دقيقاً داخل الحرف نفسه إلا ف المستقصى للزمخشري. وتميزت كذلك باضافة امثال المولدين اليها في بعضها.

ونستطيع ان نميز من كتب هذه المرحلة كتاب الدرة الفاخرة للأصفهاني (ت ٣٥١ هـ)، وجمهرة الامثال للعكسري (ت ٣٩٥ هـ)، وكتاب الوسيط في الامثال للواحدي (ت ٤٦٨ هـ)، ومجمع الامثال للميداني (ت ٥١٨ هـ)وكتاب المستقصي في الامثال للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ).

واستمر تدو ين الامثال وجمعها في مجموعات وفق نظام معين لكل كتاب، وان كان زخم الحركة وقد ضعف بعد أن استنفذت معظم غاياتها. ولسنا مع الرأي الذي يذهب الى أن كتاب الميداني هو اخر ما الف في الامثال العر بية (زولهايم، ١٩٧١: ١٥٧) فمن المؤلفات التي وصلت الينا بعد الميداني: تمثال الامثال لابي المحاسن العبدري الشيبي (ت ٨٣٧ هـ)، وكتاب زهر الاكم في الامثال والحكم للحسن اليوسي (القرن الحادي عشر)، وهما كتابان متداولان في عصرنا.

اما كتب الامثال التي ضلت طريقها الينا ، او مازالت حبيسة خزائن المخطوطات فأكثر من التي وصلت، وقد ورد ذكرها في الفهرست وكشف الظنون و بروكلمان، وذكر بعضها فهارس دور الكتب والمخطوطات في العالم. وقد يكون مفيداً أن نورد جدولا يبين عدد الامثال التي تضمنها كل كتاب من الكتب التي نشت:

امثال المفضل الضبي ٢٢٥ مثلا امثال ابي عكرمة الضبي ١١١ مثلا

امثال السدوسي ١٠٧ امثال الفاخر لابن سلمة ٥٢١ مثلا
الدرة الفاخرة للاصفهاني ٢٢٢٢مثلا امثال ابي عبيد القاسم بن سلام ١٣٨٦ مثلا
كتاب افعل للقالي ١٢٠ مثلا جمهرة الامثال للعسكري ١٩٧٢ مثلا
الوسيط للواحدي ١٨٤ مثلا مجمع الامثال للميداني ٤٧٦٥ مثلا
المستقصى للزمخشري ١٥٤٤ مثلا تمثال الامثال للعبدري ٤٤١ مثلا

* * *

وليست السبيل ممهدة امام الباحث الذي يريد البحث في الامثال العربية القديمة، فقد اثيرت مشكلات كثيرة، تماماً كما حدث للشعر الجاهلي، ومن هذه المشكلات ما هو حق ومنها ما هو باطل مصطنع. ومن المشكلات التي تعترض الباحث:

ـ صعوبة التمييز بين انماط ثلاثة متداخلة هي: الحكمة المثل والقول المأثور.

ـ اختلاف الروايات للمثل الواحد في مظانه المختلفة.

ـ صعوبة الفصل بين الامثال الجاهلية والاسلامية والمولدة عندما لا يشير المصدر الى فاصل بينها.

ـ قصة المثل واحتمال تلفيقها او اختلافها من مصدر لاخر.

ـ لغة المثل وهل وصل بلغته التي قيل بها أم ان الرواة اصلحوه.

ـ وذهب كثير من الباحثين الى درجة انكار وجود المثل الجاهلي، وتواضع بعضهم فوثق بضع بضع عشرات من الامثال.

وقبل الخوض في هذه المشكلات ومحاولة توثيق المثل اود ان اقرر حقيقة اؤمن بها وقد تحتاج الى تأييد او تفنيد وهي ان الادب العربي القديم، والجاهلي منه بشكل خاص قد تعرض للشك والطعن فيه ومحاولة انكاره، في فترتين بينهما ترابط قوي: في العصر العباسي على يد الشعوبين، وفي القرن العشرين (في مطلعه). وفي كلتا الحالين كان الهدف واضحاً، وهو التنكر للحضارة العربية من جذورها الاولى والطعن في مقوماتها.

اما القضية الاولى وهي الفصل بين الحكمة والمثل والقول المأثور فقد جاء في اللسان ان الحكمة عبارة عن معرفة افضل الاشياء بأفضل العلوم. و يقال لمن يتقن دقائق الصناعات و يتقنها حكيم. و يضيف صاحب اللسان: وهى، اي الحكم، المواعظ والامثال التي ينتفع بها الناس. (١٢) وجاء في القاموس المحيط أن الحكمة هى العمل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والانجيل (١٣). اما الذين عرضوا لتعريف المثل من القدماء فقد رأينا انهم رأوا في الامثال «نوادر حكم العرب» و «حكمة العرب» و «كل كلمة سائرة مثلا» (العسكري، ١٩٦٤:).

اما المستشرق الالماني زولهايم فقد رأي ان الحكم تجمع كل ما يتصل بالعادات والتقاليد، والتدبير، والاقوال السائرة، والعبارات النادرة، وهى اي الحكم، تعبر عن خبرات الحياة مباشرة في صورة تجريدية. (زولهايم، ١٩٧١: ٣٢).

وقد حاول بلاشير تعريف الحكمة وتمييزها فقال انها تحمل طابع الابداع الشخصي، والتفكير المتفق عليه اكثر من المثل، ولكنه عاد فأقر بأن الكلمات الثلاث استعملت مترادفة في التراث العربي (بلاشير، ١٩٥٦: ٤٣٨/٣).

ونخلص من هذا كله الى أن الحكمة والمثل من جوامع الكلم، ولكن المثل يفيد معنى ظاهراً، واخر باطناً، و يرد الباطن الى الحكمة والرشاد. وأما الحكمة فانها تفيد النهى أو الامر أو الارشاد والنصح . وتصدر عن حكيم، بينما المثل قد يصدر عن شخص عادي . وإن الحكمة والمثل يلتقيان في الهدف والنتيجة، ولكنهما قد يختلفان في الاسلوب. و يكون المثل لوناً من الحكمة، وما يفعله الحكماء في المثل انهم يضفون عليه معنى مجرداً، فيضحي حكمة، فكل حكمة تصبح مثلا ان تحقق لها شرط الذيوع والانتشار.

اما جامعو الامثال من العلماء فلم يفصلوا بين الانماط الثلاثة، وتركوا للقارىء ان يميز بين الانماط الثلاثة، ونظرة فاحصة في كتبهم تؤكد هذا الزعم. وقد شجعهم على ذلك انهم قصدوا الى هذا وذكروه في مقدمة كتبهم، كما فعل الزمخشري حينما صرح بأنه يريد الناس ان يتعلموا و يفيدوا، من الناحيتين الاسلوبية والتحارب السابقة، ومثل ذلك فعل صاحب «الفاخر» وصاحب «مجمع الامثال».

* * * *

اما القضية الثانية التي اثيرت فتتصل بتمييز المثل الجاهلي من الاسلامي أولا، ثم الاسلامي من المولد. و يرتبط بها قضية اخرى وهى اختلاف روايات المثل الواحد، كما يتصل بهما قضية اخرى وهى قصة المثل. فالمشكلة الاساسية هى المثل الجاهلي، لان الامثال الاسلامية والمولدة امرها سهل ولا يمكن الاختلاف عليها، وبخاصة الامثال التي قيلت في القرنين الثاني والثالث وما بعدهما، فقد كان التدوين منتشراً، فتبقى اذاً مشكلة المثل الجاهلي ومثل صدر الاسلام لقرب العهد أولا، ولوجود مخضرمين من العصرين.

ولنحاول بسط القضية بشيء من التفصيل، فنقول ان المثل العربي في مصادره المختلفة لا يعدو أن يتخذ واحدة من الصور التالية:

أ ــ مثل مرتبط بقصة محددة الابطال والاحداث، وموحدة في المصادر جميعها التي اوردت المثل، ولا خلاف فيها. ومثل هذا النوع من الامثال المتصلة بالايام او بحوادث مشهورة، وهذا النوع موثق وإن حلا لبعض الباحثين التشكيك فيه على أساس ان المصادر جميعها اتفقت على التلفيق ومن امثلة هذا اللون: «اشأم من البسوس» (الاصبهاني، حمزة ١٩٦٠: ١/٢٣٦)
«وجزاء سنمار» (الميداني ١٩٥٥: ١/١٥٩)، (الزمخشري، ٢٩٦٢: ٢/٥٢)
و «أوفى من السموءل» (الأصبهاني، حمزة، ١٩٦٠: ٢/٤٢٥)، (الميداني، ١٩٥٥: ٢/٣٧٤)
و «أبصر من زرقاء اليمامة» (الميداني، ١٩٥٥: ١/١١٤)، (الاصبهاني، حمزة، ١٩٦٠: ١/٧٩)
و «مايوم حليمة بسر» و «لامر ما جدع قصير انفه»
ب ــ مثل منتزع من قصيدة لشاعر جاهلي او اسلامي، والقصيدة او المقطوعة او النتفة مثبتة في ديوانه، او المصدر الذي اورد هذا الشعر، وهذا النوع من الامثال ايضاً موثق لا خلاف فيه. ومثال ذلك:
«بعض الشر أهون من بعض» (الميداني ١٩٥٥: ١/٩٥). فهو مأخوذ من قول طرفة بن العبد البكري:

أبا منذر افنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

(طرفه بن العبد، ١٩٥٨: ٢٠٨).
ومنه أيضاً:

«خلا لك الجو فبيضي واصفري» (الميداني، ١٩٥٥ : ٢٣٩/١).

مأخوذ من قول طرفة ايضاً

يـــالـــك مـــن قـــبـــرة بـمـعـمـر
خـــلا لـــك الجـــو فـــبـــيـضي واصـــفـــري
ونـــقّـــري مـــا شـــئـــت ان تـــنـــقـــري
قـــد رجـــل الـــصـــيـــاد عـــنـــك فـــابـــشـــري
(طرفه بن العبد، ١٩٥٨: ١٩٣)

ومثاله ايضاً:

ما ينضج كراعاً ولا يرد راو ية (الميداني، ١٩٥٥: ٢٩١/٢)

فقد روت عمرة بنت معاو ية بن عمرو السلمي انها سمعت اباها ينشد ليلة وفاته:

يـــاو يـــح صـــبـــيـــتـــي الـــذيـــن تـــركـــتـــهـــم
مـــن ضـــعـــفـــهـــم مـــا يـــنـــضـــجـــون كـــراعـــاً

ولن اطيل فالامثال من هذا النمط كثيرة، وهى منتزعة من شعر شعراء وصلت دواو ينهم واشعارهم في مصادر موثقة، وقد حاول علماء جمع هذا اللون من الامثال ودونوه في مصنفاتهم.

ج ــ مثل يرتبط بصفة شريفة أو دميمة الصقت أو نسبت الى شخص معروف في مجتمعه، وتداول الناس المثل، ولا مجال لانكار الشخصية أو الصفة المتصلة بها ومثال ذلك:

«ابلغ من قس» (الاصفهاني حمزة، ١٩٦٠: ٩٤/١) (الميداني ١٩٥٥: ١١١/١) يعنون قس بن ساعدة الايادي الخطيب الجاهلي المعروف.

«اعيا من باقل» (العسكري، ١٩٦٤: ٧٢/٢)، (الميداني، ١٩٥٥: ٤٣/٢) وهو رجل من اياد اشتهر بالعي.

«اعز من كليب» (الضبي، ابو عكرمة، ١٩٧٤: ٥٠)، (الميداني، ١٩٥٥: ٢/٦٥).
«اعلم من دغفل» (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/٢٩٨)، (الميداني، ١٩٥٥: ٢/٥٤) وهو نسّابة مشهور.
«افتك من الحارث بن ظالم» هو الحارث بن ظالم المري الغطفاني.
د ــ مثل يتصل بصفة لحيوان سواء أكانت هذه الصفة قبيحة أم مستحبة. وهذا اللون من الامثال لا نستطيع تحديد عصره، وان كنا نميل الى نسبته الى العصر الجاهلي بسبب شدة التصاقهم بتلك الحيوانات ومعرفتهم بطباعها، و بخاصة المتوحش منها. ونستثني من ذلك بعض الحيوانات التي عرفها العر بي بعد التوسع في الفتوحات الاسلامية. وسنعرض لقصص الحيوان في الامثال في مكان اخر من هذا البحث بشيء من التفصيل. وهذا اللون من الامثال قد يرتبط بقصة، وهذه القصة قد تكون خرافية، وقد يكون بعضها حقيقاً.

هـ ــ مثل متصل بتجارب خاضها العر بي وخلص الى نتيجة هى عبارة عن معرفة من معارفه المتعددة، وهى تشكل مجمل ثقافته. وهذا اللون مثل قولهم :
اخر الدواء الكي (العسكري، ١٩٦٤: ١/٩٧).
ابنك ابن بوحك (البكري، ابو لمبيد، ١٩٧١: ١٤٧)
اذا طلع سهيل على اثباجها فلا تسأل بلقاحها ونتاجها. (السدوسي، ابو فيد، ١٩٧٠، ٩٣).
اذا اتلف الناس اخلف اليأس (الزمخشري، ١٩٦٢: ١/١٥٢)
وهذا اللون من الامثال قد تختلف قصصه، وقد يختلفون في النسبة الى اول من قاله، ولكن هذا الاختلاف في النسبة او القصة لا يقلل من اهميته وقيمته في نقل معرفة من معارفهم وتجر بة من تجار بهم الذاتية. ولكن تبقى مشكلة تحديد عصره ولا نستطيع ان نقطع فيها برأى اذا لم يتضمن المثل قرينة أو قرائن تشير الى امكانية تحديد عصره.
و ــ مثل يتصل بجماد، كصخرة، او ريح، أو ليل، أو نجم، أو غير ذلك. وهذا اللون من الامثال يحتاج الى دراسة مستقلة لانه يتصل بمعرفة خاصة تميزت بها الامم البدائية. واكاد اجزم بأنه الصق بالبيئة الجاهلية لامور لا تخفى على كل ذي بصيرة، فهو يتصل بالميثولوجيا عندهم. ومن امثلة هذا اللون:

أطمع من قالب الصخرة (الاصبهانيو حمزة، ١٩٦٠: ٩٢/١)، (الميداني، ١٩٥٥: ٤٣٩/١)، (الواحدي، ١٩٧٥: ٦٩).
أنكد من تالي النجم (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ،٣٩٧)

ومنه ايضاً تلك المحاجاة التي اوردها صاحب «تمثال الامثال» بين امرأة من الجن واحد فتيان العرب، وأورد على لسانيهما امثالا منها: كاد الحريص يكون عبداً، وكاد الفقر يكون كفراً، وكاد البيان يكون سحراً، كاد النعام يطير (العبدري، ابو المحاسن، ١٩٨٢: ٤٩٥/٢).

والامثال المتصلة بالاساطير والجن والخرافات وما كانوا يتعقدونه كثيرة، وقد نسجوا حولها قصصاً ابطالها من الجن أو الجمادات او الحيوان وانطقوها ليصلوا الى حكمة او معرفة امنوا بها. وهو باب واسع يستحق دراسة مفصلة مستقلة.

ز ــ امثال تتحدث عن قيم وعادات هى في حد ذاتها مثاراً للشك أو الجدل لان المجتمع تعارف عليها وامن بها، وهذا اللون مثار جدل وشك من حيث تلون قصصها واختلاف جزئياتها وتغير ابطالها في مظانها المختلفة. وهذا ما دعا نفراً من الباحثين الى الشك فيها والزعم انها ملفقة، وان هذه الصقت بالامثال في مرحلة تالية، وجل هؤلاء من المستشرقين.

وقد انبرى احد الباحثين العرب للرد عليهم مدللا بأن من الدلائل النفسية التي تؤكد ان للمثل قصة مرتبطة بواقع قد حدث، وان نص المثل في كثير من الامثال العربية قد جاء في صورة جملة خبرية تخبرنا عن حادث وقع في وقت مضى .. و يذهب الى ابعد من هذا فيرى ان ارتباط المثل بقصة يدل على أن الواقع قد سما الى المثال فبلغه وصار هو وإياه، فتحول بذلك الى حادثة تاريخية احالت الحياة العربية نقاء و بهاء، واشعلت التاريخ العربي بالوهج المشع الساطع. (١٤).

ج ــ اما اللون الاخير من الامثال فهو الذي جاء في صورة نص غير مرتبط بقصة او شرح. وكل ما جاءت به مصادره هو لمن يضرب. ولهذا اللون احد تفسيرين: اما ان تكون قصته التي ارتبط بها أولا قد سقطت لسبب من الاسباب، أو ان يكون المثل جزء من مقولة لرجل من عامة الناس لم يشتهر كما اشتهر اكثم بن صيفي او

الاحنف بن قيس او قس بن مساعدة أو غيرهم، ولذا فقد حفظ المثل وتناقله الناس لقيمته ونسوا صاحبه.

ونخلص من هذا كله الى ان توثيق المثل يتكىء على دعامتين:

أ ــ خارجية تتصل برواته وشارحيه، وهم صفوة من العلماء، ولم يتردد الواحد منهم في ذكر الروايات المختلفة المتعددة للمثل الواحد لقائله. وقد تعرض هؤلاء العلماء للجرح والتعديل، فعرفنا منهم الثقة والمطعون في روايته او علمه. و يتصل بهذا ايضاً أن المثل الذي يتكرر وروده في مصادر الامثال المختلفة منسوباً الى قائل ومرتبطاً بقصة لا مجال للشك فيه.

ب ــ داخلية، وتتصل هذه بمادة المثل، والتجربة التي يحملها، والقيمة التي يتضمنها، والاعلام من اشخاص او حيوانات او جمادات. وهذه نستطيع، استناداً الى المصادر الاخرى ان نوثقها كما وثق الشعر الجاهلي واخبار العرب في جاهليتهم. ولقد حاول العلماء الذين تصدوا لتدو ين الامثال مناقشة تلك القيم، والصيغ الصرفية في نص المثل، وصوبوا بعضها، واثبتوا ذلك تماماً كما كانوا يفعلون بالشعر. واستطيع ان اؤكد ان الامثال التي تحمل قيماً تتعارض والفكر الاسلامي تماماً ولا يمكن تأو يلها قد استبعد معظمها، ولم تصل الينا.

اما قضية الفصل بين المثل الجاهلي والاسلامي والمولد فقد اسهب فيها رواة الامثال والعلماء الذين عنوا بها. فالامثال المتصلة بقصص يسهل تحديد زمانها ومكانها، والامثال المولدة نصوا عليها صراحة، أو على الاقل اثبتها بعضهم مستقلة، واطرحها اخرون تماماً كالزمخشري. و بالمقارنة تفرز من كتب الامثال الاخرى، بل ان كتب الامثال نصت على امثال كل قبيلة او بيئة، نصّت على ان هذا المثل من امثال ثقيف، او من أمثال المدينة، أو من امثال العامة. ولم يكتفوا بذلك بل تدخلوا في تصحيح مسار المثل، فكانوا يقولون في كتبهم: هذا المثل تغلط به العامة، وصوابه كذا.

أما الامثال غير المحددة المعالم والزمان والمكان فتؤخذ على أنها مجردات لا

يحدها مكان او زمان، ولكنها تقدر لقيمتها والشحنة الفكرية التي تختزنها، وذلك لا يخلق مشكلة او يقلل من قيمتها طالما انها وردت موثقة في كتب الامثال.

ان الامثال العربية القديمة كالشعر القديم تماماً، كثر فيه القول والطعن والشك، ولكن المجموعات والمؤلفات والعلماء الذين تصدوا لغربلتهما لم يكونوا بغافلين عن ذلك كله. ولولا قيمة كل من الشعر والامثال، وما يحظيان به من منزلة في نفوس ابناء الامة لما رأينا هذا الحشد الهائل من المجموعات الشعرية، وكتب الامثال. ولعلي لا اجانب الحقيقة اذا زعمت انها عوامل خلود الشعر القديم والامثال القديمة يمكن ردها الى العوامل التالية مجتمعة:

١ ــ القيمة اللغوية ٢ ــ القيم التي تحملها ٣ ــ التجربة الذاتية التي اتكأ عليها العربي في عصوره التالية

٤ ــ سهولة الحفظ ٥ ــ اتخاذهما مادة تعليمية.

ولعل مما يلقى الضوء على قصة المثل ايراد احصائية تبين عدد الامثال التي وردت لها قصة في بعض كتب الامثال ونسبة ذلك الى التي وردت بلا قصة.

الكتاب	مثل بقصة	مثل بلا قصة
جمهرة الامثال	١٨٣	١٦٨٩
الفاخر	١٢٠	٤٠١
الدرة الفاخرة	٢٤٩	١٩٤٨
امثال ابي عكرمة	١٨	٩٣
امثال السدوسي	١٩	٨٨
الوسيط	١٤٤	٤٠
فصل المقال	١٨١	٤١٩
المستقصى	٣٤٤	١٢٠٠
مجمع الامثال	٧٩٣	٣٩٧٢

* * * *

وفي الامثال ظواهر كثيرة لم يقف عندها الباحثون الذين عرضوا للامثال وقفة متأنية، بل مروا بها مروراً عابراً من غير استقراء شامل دقيق للامثال، ولذا فقد جاءت استنتاجاتهم مجافية للواقع والحقيقة في اغلب الاحيان. وان ميدان الامثال مازال بكراً لم يدرس بعناية، ولعل الدراسة الوحيدة الجادة هي دراسة المستشرق الالماني (زولهايم). ولا يعدل ما بذل في جمعها وتدوينها وتصنيفها ما بذل حديثاً في دراستها، حيث انهم قديماً اولوها عنايتهم وان كانت مركزة حول شرحها وتوثيقها وتدوينها. وحري بالباحثين اليوم ان ينهضوا بعبء دراستها دراسة موضوعية وفنية تفيد من وسائل العصر ونظرياته في علوم المعرفة المختلفة.

ومن الموضوعات التي اراها جديرة بالبحث والدراسة الموسعة: ظاهرة المبالغة في الامثال، والقيم والمثل الاخلاقية في الامثال، والمعطيات الثقافية في الامثال، والرمز والاسطورة، وصورة الحيوان في الامثال، وصيغة افعل التفضيلِ والمرأة في الامثال، وعالم الناقة في الامثال، وادب الجنس في الامثال، والاساليب اللغوية في الامثال، والقيمة اللغوية للامثال، ومدى تصوير الامثال للحياة العربية، ودراسة طبيعة العقلية العربية من الامثال. ولا يستطيع هذا البحث ان يتناول هذه الظواهر جميعاً، ولذلك فسأقتصر على التعرض لثلاث ظواهر وهي: صيغة افعل التفضيل، وصورة الحيوان، ومدى تصوير الامثال للحياة العربية.

وأما صيغة «أفعل من كذا» فهي صيغة للتفضيل في اللغة العربية، من الصيغ الصرفية، وهذه الصيغة شائعة في الامثال القديمة حتى وصل عدد الامثال التي جاءت على هذه الصورة اكثر من الف وخمسمائة مثل. (١٥) وبمعنى اخر ما يزيد على خمس مجموع الامثال العربية جميعاً.

ولهذه الصيغة دلالة هامة من وجهة النظر السيكولوجية، فالعقلية العربية القديمة وربما الحديثة اقرب الى المثالية منها الى الواقعية، وهي لا تكاد تقيم هوة بين الواقع والمثال او المثل الاعلى، بل انهما متواصلان (١٦) ونزوع تلك العقلية الى المثال يجعلها تحرص على استعمال هذه الصيغة في اقوال سائرة شاردة كالامثال. فعندما يقولون في الامثال: احلم من الاحنف، فان المثل هو الاحنف او صفة الحلم بالغة

صورتها الكاملة المثالية عنده، وان الحالة التي يضربون المثل لها يتوقعون ان يكون الرجل احلم من قيس، أي ان الواقع فاق المثل الاعلى، او انهما متشابهان على الاقل.

وقد بلغ من اهتمامهم بهذه الصيغة درجة جعلهم يؤلفون كتباً اقتصرت على هذا اللون من الامثال. وهذا الاهتمام وان بدا شكلياً في ظاهره، الا انه عميق الدلالة. ومن هذه الكتب:
كتاب للاصمعي (الاصبهاني حمزه، ١٩٦٠: ٥٥)، واخر للحياني (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ٥٥)، وكتاب المنمق لابن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ٥٥) وقد نقل فيه عن كتب الاصول وزاد فيه زيادات كثيرة وقد ضمن كتابه ثلاثمائة وتسعين مثلا. وباب في كتاب ابي عبيد اورده في اخر كتابه. واما كتاب الدرة الفاخرة للاصبهاني (ت ٣٥٠ هـ) فقد خصصه للامثال على وزن افعل، وضم الفين ومائتين وعشرين مثلا. ولابي علي القالي البغدادي كتاب سمّاه (افعل من كذا) ضمنه مائة وعشرين مثلا.

ولا يعني هذا ان كتب الامثال الاخرى قد خلت من الامثال التي جاءت على هذه الصيغة، فقد دمجها الاخرون في الابواب المختلفة بحسب جذر المادة، فأجسر في باب (الجيم)، واكذب في باب (الكاف)، وهكذا وقد تضمن كتاب العسكري (**جمهرة الامثال**) مائة وثمانية وعشرين مثلا. وكتاب المفضل بن سلمة (الفاخر) **ثمانية وعشرين مثلا**، والواحدي (الوسيط) اربعة وعشرين مثلا، والميداني **والزمخشري اورد كل منهما** ما يقارب التسعمائة مثل.

ويمكننا تمييز فئات ثلاث تنتمي اليها الامثال التي جاءت على هذه الصيغة:

أ ــ فئة استمدت نماذجها المثالية من البشر، من العرب، وربما من غيرهم، ثم جاءت بصفة متميزة يتصف بها كل منهم وصاغت منها صيغة «افعل»، فالاحنف بن قيس اشتهر بالحلم، فقالوا: احلم من الاحنف، وحاتم الطائي اشتهر بالكرم فقالوا: اجود من حاتم (الواحدي، ١٩٧٥: ٩٥)، وكعب جاد بروحه في سبيل اصحابه الذين فضلهم ليشربوا قبله فقيل: أجود من كعب (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠

١٢٩/١)، وربيعه بن مكدم بالشجاعة فقالوا: اشجع من ربيعه (ابن عبد ربه، ١٩٦٥: ٦٩/٣)، وكليب كان عزيزاً فقالوا: اعز من كليب وائل (الضبي، المفضل، ١٩٨١: ٥٥)، (العسكري، ١٩٦٤: ٦٥/٢) وليس شرطاً أن تكون الصفات حميدة ايجابية، فقد صاغوا الصيغة من صفات خبيثة او مذمومة للتنفير منها فقالوا: ابخل من مادر (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ٨٦/١)، (الميداني، ١٩٥٥: ١١١/١). ومادر رجل من بني هلال بن عامر اشتهر بالبخل.

اعيا من باقل. (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ٣١١/١)، (الميداني، ١٩٥٥: ٤٣/٢).

اغدر من عتيبة. وعتيبة فارسي من بني يربوع عرف بالغدر والفتك.

اجور من قاضي سدوم. (الواحدي، ١٩٧٥: ٦٨)، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١١٩/١) وسدوم مدينة من مدائن قوم لوط عليه السلام.

ازنى من سجاح (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ٢١٤/١)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ١٤٩/١) وهى امرأة من تميم ادعت النبوة.

ب ــ فئة استقى العرب امثالها من الحيوان، حيث رأوا فيه منبعاً غزيراً يستقون منه امثلة نموذجية. و يذكر الاصفهاني في «درّته» بأن اكثر امثال العرب مضروبة بالبهائم، فهم لا يكادون يذمون ويمدحون إلا بما يجدون في البهائم. و يعلل ذلك بما الهمها الله جل ثناؤه من المعرفة، واشعرها من الفطنة، و بصرّها بما يقيمها و يعيشها. و يذهب الى ابعد من هذا حينما يعلل تفرد العرب بذلك لانهم اناس وضعوا بيوتهم وابنيتهم وسط السباع والاحناش والهمج والحشرات، فليس يعثرون إلا بها، ولا يفتحون عيونهم على سواها. (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ٦٠).

ومما لا شك فيه أن الانسان تجتمع فيه جملة من اخلاق هذه البهائم، فهو يجمع الى حرص الذئب وحذر الغراب وشجاعة الاسد وقد استثنوا من الحيوان ما يعمها الجهل وقلة المعرفة، فلم يضربوا بها كالسمك والضفادع والسراطين. ولعل محاولة اولية لاستقراء دقيق للحيوانات التي كثر ورودها في أمثال هذه الصيغة تمكننا من أن نقف على الحقائق التالية:

١ ــ ان الذئب قد اورد له الاصفهاني ثلاثاً وعشرين صفة تضرب بها الامثال.

٢ ــ ان الاسد كان نصيبه من الامثال على هذه الصيغة في كتب الامثال احدى وعشرين صفة.

٣ ــ كان نصيب الضب خمس عشرة صفة.

٤ ــ نستطيع ان نتعرف الى البهائم التالية في الامثال التي وردت على صيغة «أفعل»:

من اكلة العشب: الثور والشاة، وجحش الا تان، والبغل، والتيس، والجمل، والظليم.

ومن الحيوانات المفترسة: الذئب، والاسد، والضبع، والثعلب، والكلب، والقرد، والدب، والنمس، والسنور.

ومن الطيور: الغراب، والعصفور، والفاختة، والقنبرة، والاوز، والنعامة، والحدأة، والديك، والدجاجة، والبغاث.

و يبدو ان الاصفهاني تراجع عن مقولته بأن العرب كانت سباقة في هذا المضمار، وهو تمثل طباع الحيوان وضرب الامثال بها، فعاد وذكر في مقدمته ان الفرس سبقت العرب في استعمال التمثيل في منطقها، وانه ورد في بعض كتب ساستها عن بعض ملوكهم انه قال: لا يصلح للجندية الا من كانت فيه خصال من طباع البهائم: قلب الاسد،وغارة الذئب ، وروغان الثعلب، وصبر السفور، وحذر الغراب، وحراسة الكركي، وهداية الحمام، وحماية الزنبور وقد سئل بزرجمهر: بم ادركت ما ادركت؟ فقال: ببكور كبكور الغراب، وحرص كحرص الخنزير، وسعى كسعي الذئب، وصبر كصبر النسور. (الاصبهاني، حمزه، ١٨٩٦٠: ٦١ ــ ٦٢).

و بالرغم من عدم ورود نص صريح على الا تصال الثقافي بين العرب وغيرهم في الجاهلية، وكذا على نفي هذا الا تصال فان شواهد كثيرة تؤكد هذا الا تصال، منها ما هو منطقي استنتاجي وهو ما نراه في بعض الامثال، ومنها ما هو مادي، فقد جاء في تاريخ الطبري ان عدي بن زيد قد قرأ كتب العرب والفرس. (الطبري د.ت: ١٩٣/٢) وفي القصد الفريد فصل لامثال اكثم بن صيفي الجاهلي و بزرجمهر الفارسي، مما يوحي بوجود صلة ما بين امثال الرجلين. ولم تنقطع الصلات

السلمية والحربية بين العرب والفرس، أو بين العرب والاحباش، او بين العرب والهند، كما كانت الحيرة مركزاً ثقافياً يحقق تلاقي الثقافتين العربية والفارسية.

ولكننا بالرغم من هذا كله نرى ان صلة العربي الجاهلي في جزيرته المترامية الاطراف، وتعايشه مع بعض هذه المخلوقات، وخوفه وحذره وحربه مع بعضها الاخر، وما كانت اسفاره وحروبه توحيان به من تأمل، كل ذلك، فيما نزعم كان له اكبر الاثر في الاكثار من ضرب الامثال بهذه الحيوانات وطباعها.

ان صيغة «أفعل» بالذات تؤكد لنا ان حجم الامثال التي تتصل بالحيوان اكثر بكثير من تلك التي تتصل بأناس ادميين. وربما كان ذلك اوغل في الرمز والابتعاد عن الحرج عندما يضرب الامثال بأناس مثله لا يأمن شرهم.

ج ــ فئة استمدها الذهن العربي من الطبيعة، رحمتها وقسوتها، جمالها وقبحها، ما تبثه من طمأنينة او خوف في نفس العربي ومن الحياة كذلك بمظاهرها المختلفة. وبمعنى اخر مما حول العربي من غير الحيوان والانسان. ومن امثلة ذلك: «اطمع من قالب الصخرة» (الاصبهاني، ١٩٦٠: ٢٩٢/١)، (الميداني، ١٩٥٥: ٤٣٩/١) و «اكل من ضرس»، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ٧٣/١)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٧١/١) و «اذل من النعل» (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ٢٠٦/١) (العسكري، ١٩٦٤: ٤٧٠/١) «أثقل من طود» (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١٠٣/١) (الميداني، ١٩٥٥: ١٥٧/١) و«اجرأ من السيل» (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١١٦/١)، (الميداني، ١٩٥٥: ١٨٩/١) و «أجفى من الدهر» («الميداني، ١٩٥٥: ١٨٩/١).

وهذا اللون من الامثال يحمل صوراً مجازيه وتجسيدية تربط بين الواقع المعاش وسماء الخيال المحلق المبدع. وهو كثير في صيغة «أفعل».

ونلاحظ بوضوح ان صيغة «أفعل» والامثال التي جاءت على هذه الصيغة تنطوي دائماً على شيء من التجريد، بل ربما كان التجريد اساسها وفي ظني انها تحتاج الى دراسة مستقلة موسعة اكثر من هذه الالمامة العابرة في جزئية من البحث كما هي الآن، دراسة تبين الصفات التي استخدمها للمفاضلة، ونوعيتها سلباً أو ايجاباً، حسية أم معنوية، ونسبة ورود كل حيوان في هذه الصيغة، والصفات

المستخدمة منه، وكذلك اتصال بعض هذه الامثال بمعتقداتهم ومعارفهم، واخيراً نسبة ورود هذه الامثال المختلفة، لان في ذلك دلالة على شيوعها وانتشارها.

* * *

ومن الظواهر البارزة في الامثال، وتتصل اتصالا وثيقاً بها، بل تعتبر من خصائص الامثال العربية، قصص الحيوان فيها. وربما كان اول ظهور لهذا التراث القصصي في كتب الامثال في كتاب الامثال للسدوسي (ت ١٩٥ هـ)، حيث تشكل قصص الامثال التي اوردها حول حمق الضبع وطباعه الاخرى مجموعة فريدة يكاد ينفرد بها دون غيره من رواة الامثال وجامعيها (الدوسي، ١٩٧٠: ٤٢ ــ ٤٧).

* * *

وكنا قد عرضنا في موضوع سابق من هذا البحث الاسباب التي دعت العربي الى استخدام التمثيل والتشبيه بطباع البهائم، ونضيف هنا بأن العربي بلغ من شدة اعجابه او نفوره من صفات فيها ان تسمى ببعض اسمائها. وليس بعيداً ان يكون العرب في جاهليتهم قد انتقل اليهم بعض امثال الامم الاخرى التي تروى على السنة الطير والوحش، فرأوا انطاق هذه الحيوانات ببعض الامثال بحيث يكون المثل على لسان هذا الحيوان او ذاك، وذلك شبيه بما في كتاب «كليلة ودمنة».

وان الباحث المستقرىء للامثال بدقة يستطيع ان يرى ان الحيوان كان محور امثالهم في مجالات حياتهم المختلفة، فقد لاحظوا صفات هذا الحيوان وطباعه وشكله، وتعاونه وانانيته، وكل شيء فيه، وتمثلوا بها. ولعل ايراد طائفة من الامثال تغري بعض الباحثين بمسح شامل للحيوان في الامثال.

فمما جاء على صيغة «افعل»:

اجرأ من الذباب، اجبن من صافر، اجبن من صفرد، اجبن من كروان، اجبن من الرباح، اجبن من هجرس، اجول من قطرب، اجوع من كلبة حومل، اجوع من ذئب، اجوع من قراد، اجبن من نعامة، اخف حلماً من العصفور، اخف

حلماً من بعير، اخون من ذئب، اخيل من غراب، اثقف من سنور. (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٨١، ١٨٦، ١٨٧، ٢٥٤، ٢٦٠، ١٥٧).

ونلاحظ ان هذه الامثال من حروف الجيم والخاء والثاء فقط.

ومما جاء على غير هذه الصيغة وكان الحيوان محور المثل:

* تركته على مثل عضرط الغير (يضرب لمن لم تدع له شيئاً) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٤٤)

* توطن الابل وتعاف المعزى (يضرب للقوم تصيبهم المكاره، فيوطنون انفسهم عليها و يعافها جبناؤهم) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٤٤).

ومن الواضح انه افاد من قوة الابل وصبرها، ومن ضعف المعزي وذلها.

* ترافدوا ترافد الحمر بأبوالها (وذلك اذا تواطأ القوم على ما تكرهه) (الميداني ، ١٩٥٥ :١/١٤٤).

* تركته على مثل خد الفرس (اي تركته على طريق واضح مستو) (الميداني، ١٩٥٥ : ١/١٤٥).

* تركته على مثل مشفر الاسد (يضرب لمن تركته عرضه للهلاك) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٤٥).

* تقلدها طوق الحمامة (اي تقلد الخصلة القبيحة تقلد الحمامة طوقها، فهي لا تزايله ولا تفارقه) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٤٥) .

* ثبت لبده (يضرب للرجل ادا دعي عليه، اي ادام له الشر.واللبد هنا لبد الفرس، فاذا لم يلبد فرسه لم ير في رحله خيراً، لانهم يجلبون الخير بالغارة) (الميداني، ١٩٥٥: ر١/١٥٥).

* جاء يجر بقره (أي عياله، كنى عن العيال بالبقر لان النساء محل الحرث والزرع، كما ان البقر الة لهما) (الميداني، ١٩٥٥، ١/١٦٤).

* جاء كخاصي العير. (يضرب لمن جاء مستحيياً) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٦٥).

* جاء باحدى بنات طبق. (بنت طبق سلحفاة تزعم العرب انها تبيض

تسعاً وتسعين بيضة كلها سلاحف، وتبيض بيضة تنقف نعن اسود. و يضرب بها المثل للرجل يأتي بالامر العظيم) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٦٦).

* جاء القوم كالجراد المشتعل. (أي متفرقين من كل ناحية) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٦٥)

* الجحش لما فاتك الاعيار. (يضرب في قناعة الرجل ببعض حاجة دون بعض) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٦٥).

* جاوز الحزام الطبيين. (الطبي للحافر والسباع كالضرع لغيرها، و يضرب هذا المثل عند بلوغ الشدة منتهاها) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٦٦)

* جاحش عن خيط رقبته (يضرب لمن يدافع عن نفسه، واصله من الجحش الذي هو سجح الجلد) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٦٦).

* جاء بقرني حمار. (اذا جاء بالكذب والباطل، لان الحمار لا قرن له) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٦٦).

* جاء بدبي دبي (اذا جاء بالمال الكثير، والدبي الجراد) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٥).

* الجمل في جوفه يجتر. (يضرب لمن يأكل من كسبه) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٥).

* جاء نافشاً عفريته. (اذا جاء غضبان، العفريه: عرف الديك) (لميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٥).

* جاءوا على بكرة ابيهم. (اذا جاءوا جميعاً، وقال بعضهم ان البكرة تأنيث البكر وهى الفتي من الابل) (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٦).

ان هذه الامثلة تعطينا فكرة عن تلك الصلة الوثيقة بين عالم الحيوان و واقعه وصلته بالانسان وتجاربه وقيمه التي امن بها. وان الامر، ليزداد وضوحاً، يحتاج الى دراسة منفصلة مفصلة تستند الى استقراء الامثال جميعاً واستقراء قصصها، لتبين عالم الحيوان في الامثال ومجالات التمثل به، وندرة ورود هذه الصفة أو شيوعها، وكثرة ورود ذكر هذا الحيوان او قلة ورود اخر. ومن الواضح ان ما سقته هنا من حرف او حرفين فقط وهو بين الدلالة.

ولا يقتصر ذكر الحيوان في الامثال على ارتباطه بالتمثل به، أو بصفة من صفاته، او طبع من طباعه، بل هناك مجالات اخرى، منها انه نسب الى اماكن معينة ومراعي في الجزيرة، فأصبح معروفاً بها ومعروفة به، ودل عليها، فقيل: أرنب الخلة، وذئب الخمر، وذئب الغضي، وقنفذ برقة، وشيطان الحماطة، وضب السحا، وظبي الحلب، وتيس الربلة، وذلك كله على قدر طباع الامكنة والاغذية العاملة في طباع الحيوان. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٥٩).

ومن تلك المجالات ايضاً انطاق الحيوان، وذلك على غرار ما في كليلة ودمنة الهندية. ولا يستبعد اتصال العرب بتلك الاداب اما مباشرة، واو عن طريق وسيط ثالث. ومثال ذلك اللون من الامثال، وهو كثير، ما ورد في قصة المثل: ضَرِطٌ ذلك (الميداني، ١٩٥٥: ١/٤٢٠) قال: تزعم العرب ان الاسد رأى الحمار، فرأى شدة حوافره، وعظم اذنيه، وعظم اسنانه و بطنه، فهابه، وقال: ان هذا الدابة مكر، وانه لخليق ان يغلبني، فلو زرته ونظرت ما عنده، فدنا منه فقال: ياحمار! ارأيت حوافرك هذه المنكرة لاي شيء هي؟ قال؛ للاكم، فقال الاسد: قد امنت حوافره. .. الخ القصة التي تنتهي بأن قال الاسد: ضرط ذلك، فعلم انه لا غناء عنده فافترسه. وتضرب العرب المثل لما يهول منظره ولا معنى وراءه.

* * *

والظاهرة الاخيرة التي سأختم بها هذا البحث هي محاولة الاجابة على هذا السؤال المركب: هل تصور الامثال العربية القديمة الحياة العربية الجاهلية؟ واذا كانت تصورها فالى اي مدى استطاعت ذلك؟ وهل نطمئن الى النتائج؟

وقبل الاجابة اود توضيح امرين:

الاول: ان الاجابة عليه تكمن في الامثال وقصصها وشروحها، بل ان قصص الامثال وشروحها اكثر عوناً في ذلك . وقد عرضنا لقصص الامثال وعرفنا انه لا يمكن ان ندرس الامثال او اية ظاهرة فيها بدون الاستعانة بها، كما عرضنا لمحاولة التشكيك فيها.

الثاني: اننا خصصنا الحياة العربية الجاهلية، ولم نعرض للحياة بعد الاسلام لان الثانية تسعفنا مصادر كثيرة في تصويرها، اما الاولى فمصادرها قليلة جداً، ولذا فان اضافة مصدر يشكل لبنة جديدة في الكشف عن طبيعة تلك الحياة.

وما سنعرضه هنا هو بداية ارجوان تليها دراسات موسعة لتكون اجدى وانفع. وسأحاول بادىء ذي بدء أن أحدد المجالات التي سأتناولها ، ثم انتقل الى التدليل عليها بالامثال. اما المجالات التي تشمل الحياة العربية فهي: العادات والتقاليد ــ المعتقدات التي امنوا بها ــ البيئات الجاهلية ــ الاسرة ممثلة بالمرأة التي تشكل دعامتها الاساسية ــ وسائل معيشتهم وحياتهم ــ العلاقات مع جيرانهم من الامم المجاورة ــ الحرب ــ أخبار الامم السالفة ــ رصد احداث الجزيرة ــ موقف العربي من الظواهر الطبيعية ــ صلتهم بالبحر وحيواناته ــ موقفهم من الزمان والدهر والموت.

وسأكتفي بهذه المجالات لانها تشي بما كان عليه فكر العربي الجاهلي وحضارته. وليس ادل على اهمية الامثال لدراسة طبيعة الحياة العربية، والعقلية العربية، مما نلمسه من اهتمام المستشرقين بدراسة الامثال، وتحقيق بعض كتب الامثال. ولا تكاد تخلو دراسة لهم حول الادب الجاهلي او الحياة الجاهلية من دراسة الامثال. ولكن بعضهم شكك في كثرتها من جهة، فرفض توثيق اكثر من بضع مئات منها، وان كان قد اعترف بأنها كنزهزيل يفشي اسراراً كثيرة عن العقلية العربية التي غطى عليها احياناً كثيرة دوي ابواق الشعراء. (بلاشير، ١٩٥٦: ٤٤١/٣) وقد وافقه في اهميتها وافضليتها على الشعر في الدلالة احمد امين، لان لها ميزة على الشعر، فالشعر تعبير طبقة متميزة من الناس، بينما تنبع الامثال من افراد المجتمع على اختلاف طبقاتهم، فهي تعبرِ تبعاً لذلك، عن طبقة العامة وعقليتهم (أحمد امين، ١٩٥٨: ٦٠).

وسنحاول ان نتبين بالامثلة على تمثيل الحياة العربية، ففي مجال العادات والتقاليد الجاهلية تسعفنا الامثال التالية :

* حن قدح ليس منها (الميداني، ١٩٥٥: ١٩١/١)، (العسكري، ابو

هلال، ١٩٦٤: ١/٢٧٠)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٢/٦٨) (القدح: أحد اقداح الميسر، واذا كان احد القداح من غير جوهر اخونه ثم اجاله المفيض خرج له صوت مخالف، فيعرف أنه ليس من جملة القداح).

* ايسر من لقمان. (الميداني، ١٩٥٥: ٢/٤٢٧) (روى الميداني عن حمزة انه كان من العمالقة، وأنه كان اضرب الناس بالقداح، فضربوا به المثل في ذلك، وكان له ايسار يضربون معه بالقداح وهم ثمانية).

* أبرما قرونا؟ (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٠٧) (البرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر لبخله، والقرون: الذي يقرن بين الشيئين).

* اثبت من الوشم (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٥)، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/١٠٣) (يعنون الدارات في الكف وغيرها يذر عليها النؤور).

* بعرة. (الواحدي، ١٩٦٥: ٧٦) (وقد مر شرح هذا المثل).

* جار كجار ابي دؤاد. (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٦٣) (يعنون كعب بن مامة، كان اذا جاوره رجل فمات، وداه، وان هلك له بعير أو شاة اخلف عليه، فضربت العرب به المثل في حسن الجوار).

* جاره لحم ظبي (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٥) (يضرب لمن لا غناء عنده).

* الخمر تعطي من البخيل. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٤٣) (أي انه يكون بخيلا فيجود، وحليماً فيجهل، ومالكاً للسانه فيضيع سره، أي انها تغير حاله ولا يعود يعرف كيف يحسن التصرف).

* أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك (الميداني، ١٩٥٥: ١/٣٠)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ١/٣٦٢) (روى المفضل أن فتاة من بنات العرب كانت لها خالات وعمات، فكانت اذا زارت خالاتها الهينها واضحكنها، واذا زارت عماتها ادبنها وأخذن عليها، وعلم ابوها بالقصة فقال لها: أمر مبكياتك لا امر مضحكاتك). وفي هذه دلالة على العصبية لاقارب الاب.

* تباعدت العمة من الخالة (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٣١)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٢/١٨) (وذلك ان العمة خير للولد من الخالة).

* اضل من موءودة (الميداني، ١٩٥٥: ١/٤٢٤)، (الاصبهاني، حمزه،

١٩٦٠: ٢٧٨/١) (وهو اسم كان يقع على من كانت العرب تدفنها حية من بناتها، واشتقاق ذلك من قولهم: قد آدها التراب، أي اثقلها به، هكذا قال حمزه ورواه الميداني عنه).

* أهون من دحندح. (الميداني ١٩٥٥: ٤٠٧/٢)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٤٤٦/١) (قالت بعض اهل اللغة في دحندح انه لعبة من لعب الصبيان يجتمع لها الصبيان فيقولونها، فمن اخطأها قام على رجله وحجل على احدى رجليه سبع مرات).

* اخف من الجماح (الميداني، ١٩٥٥: ٢٥٥/١) (وهو سهم يلعب به الصبيان لا نصل له يجعلون في رأسه مثل البندقة لئلا يعقر، وربما جعل في طرفها تمر معلوك بقدر عفاص القارورة، واذا شب الغلام ترك الجماح واخذ النبل).

* من اللجاجة ما يضر وما ينفع (الواحدي، ١٩٦٥: ١٥٨) (أول من قاله الاسعر بن ابي حمران، وكان قد راهن على مهر كريم له فعطب فقال:

اهلكت مهري في الرهان لجاجة
ومن اللجاجة ما يضر و ينفع

* لا عقل ولا قَوَد. (الواحدي، ١٩٦٥: ١٨٩) (العقل: الدية يتحملها عاقلة الرجل، وهم عصابته، والقود: ان يقاد القاتل بمن قتل).

هذه نماذج وليست الامثال كلها الدالة على تصوير الامثال للتقاليد والعادات، تضمنت هى وقصصها بعض العادات والتقاليد الجاهلية، وهى قليل من كثير أوردته كتب الامثال، وقد حرصت على ايراد عبارات الاقدمين كما هى لتكون دلالتها بينه.

* اهدى من دعميص الرمل. (الميداني، ١٩٥٥: ٤٠٩/٢)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٤٤٢/١)، (العبدري، ابو المحاسن، ١٩٨٢: ٣٥١) (يروي الميداني ان دعميصا هذا عندما تحمل هو واهله وولده، فلما توسطوا الرمل طمست الجن عين دعميص فتحير وهلك مع من معه في تلك الرمال).

* حديث خرافة. (الميداني، ١٩٥٥: ١٩٥/١)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٦١/٢) (يروي الميداني انه رجل من عذرة استهوته الجن مدة، ثم لما رجع اخبر بما

رأى منهم، فكذبوه حتى قالوا لما لا يمكن: حديث خرافة، وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: حديث خرافة حق).

* الحمى اضرعتني للنوم (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٠٥)، (الواحدي، ١٩٦٥: ٥٤) (المفضل بن سلمه، ١٩٦٠: ٢١٠) (روى المفضل ان اول من قال ذلك رجل اسمه مرير، كان له اخوان اكبر منه هما: مرارة ومرة، وأن مرارة خرج يتصيد في جبل لهم فاختطفته الجن .. الخ الخبر).

* وإنّ غداً لناظره قريب. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٧٠) (أول من قال ذلك قُراد بن اجدع، وتروى كتب الامثال قصته مع النعمان بن المنذر حين اكرم النعمان وهو لا يعرفه، ثم وفد عليه في يوم بؤسه، وأراد قتله كعادته في ذلك اليوم، وطلب من النعمان مهلة يعود الى أهله ثم يرجع اليه، وكفله رجل من حاشية النعمان، ورجع في الموعد المحدد، وحينما سئل عن سبب عودته بعد أن أفلت قال: إنه الوفاء).

* ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل. (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٣٧)، (الجاحظ، ١٩٦٨: ١/٢٢٠) يروى الميداني قصة المثل وانه كان مع القوم ربيبة لهم يقال لها الشعثاء الكاهنة).

* جاء وفي رأسه خطة (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٥) (أصل المثل ان احدهم اذا حز به امر اتى الكاهن فخط له في الارض يستخرج ما عزم عليه).

* حلّقت به عنقاء غرب. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٠١) (العنقاء: طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم، يضرب به المثل لما يئس منه، لان هذا الطائر وصف بالمغرب لبعده عن الناس).

* طارت بهم العنقاء. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٠١).

* طال الابد على لبد. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٤٢٩)، (العسكري، أبو هلال، ١٩٦٤: ٢/١٧) (لبد: اخر نسور لقمان بن عاد، كان قد عمّر عُمْر سبعة انسر، وضربت العرب به المثل لطول العمر).

* احاديث طسم وأحلامها. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٠٤) (يرب لمن يخبرك بما لا اصل له).

* الحذر قبل ارسال السهم (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٠٦) (تزعم العرب ان

الغراب اراد ابنه ان يطير، فرأى رجلا قد فوّق سهماً ليرميه فطار، فقال أبوه: اتئد حتى تعلم ما يريد الرجل، فقال له: ياأبت الحذر قبل ارسال السهم).

* احسن من الدمية. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٢٧)، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/١٥٨).

* احسن من الزون. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٢٧)، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/٢٤٩). (و يروى الميداني انهما الصنم)

* اشأم من غراب البين. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٣٨٣)، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/٢٤٩) (لان الغراب اذا بان اهل الدار للنجعة وقع في موضع بيوتهم يتلمس، فتشاءموا به، وتطيروا منه).

* اشأم من طير العراقيب. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٣٨٣)، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/٢٤٨) (وهو طير الشؤم عند العرب، وكل طير يتطير منه للابل فهو طير عرقوب لانه يعرقبها).

* اشأم من الاخيل (الميداني، ١٩٥٥: ١/٣٨٣)، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/٢٤٩) (وهو الشقراق، وذلك لانه لا يقع على ظهر بعير دبر إلا خزل ظهره).

* اشأم من رغيف الحولاء (الميداني، ١٩٥٥: ١/٣٨٢)، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/٢٤٧). (كانت خبازة اقتتل القوم بسببها فقتل منهم ألف إنسان.

وفي مجال الاسرة وعلاقاتها، والمرأة التي كانت محورها، زوجة ومحبوبة و بائعة هوى يلهو بها الرجال حينا، وقينة، تسليهم وتطر بهم وتمتعهم، تطالعنا الامثال التالية:

* خلع الدرع بيد الزوج (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٤٠).

* التجرد لغير النكاح مذلة (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٣٦)، (البكري، أبو لمبيد، ١٩٧١: ٤١٥).

* باتت بليلة حرة. (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٠١) (العرب تسمى الليلة التي تفترع فيها المرأة ليلة شيباء، والليلة التي لا يقدر الزوج فيها على افتضاضها ليلة حرة).

* اصبح ليل (الميداني، ١٩٥٥: ٤٠٣/١) (قالته زوج امرىء القيس الطائية فقد ابغضته من ليلة ابتنائه بها لانه كان مفركاً لا تحبه النساء).

* ابصر من زرقاء اليمامة (الميداني، ١٩٥٥: ١١٤/١)، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ٧٩/١) (وهى امرأة من جديس كانت تبصر من مسيرة ثلاثة ايام).

* بعرة. (الواحدي، ١٩٧٥: ٧٦).

* حُقَّ لفرس بعطر وأُنس. (الميداني، ١٩٥٥: ٢١٢/١) (فرس: زوج امرأة من العرب، وكان يكرمها، كما كان سخياً، فمات وخلفه عليها شيخ).

* احق من المهورة من مال ابيها . (الميداني، ١٩٥٥: ٢١٨/١).

* احمق من المهورة احدى خدمتيها. (الميداني، ١٩٥٥: ٢١٩/١)، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١٤٧/١) (الخدمة: الخلخال)

* احمق من المهورة من نعم أبيها. (الميداني، ١٩٥٥: ١٢٩/١)، (العسكري، أبو هلال، ١٩٦٤: ٣٩٠/١).

* هنيئاً لك النافجة (الميداني، ١٩٥٥: ٤٠٥/٢)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٣٩٤/٢) (كانت العرب في الجاهلية تقول اذا ولد أحدهم بنت ذلك، اي المعظمة لك، لانك تأخذ مهرها فتضمه الى مالك فينتفج).

* جانية مختضبة. (الميداني، ١٩٥٥: ١٩٩/١) (ان المرأة اذا مات زوجها ولها ولد، فزعمت انها تحنو على ولدها ولا تتزوج، وكانت في ذلك تخضب يديها).

* الحُسْنُ أحمر. (الميداني، ١٩٥٥: ١٩٩/١)، (العبدري، ابو المحاسن، ١٩٨٢: ٢٦٨) (اي من طلب الجمال احتمل المشقة).

* اخلف بقوم سادهم حقاب (الميداني، ١٩٥٥: ٢٤٧/١) (الحقاب: شيء محلّى تلبسه المرأة، واراد ما افسد امر قوم ملكتهم امرأة).

* تحمل عضة جناها (الميداني، ١٩٥٥: ١٣٦/١)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٢٢/٢) (روى الميداني قصته بأن امرأة كانت لها ضرة، فدست لها السم في شراب، فبدلت الضرة الكأسين، فشربت السم هى فماتت).

* ترى الفتيان كالنخل وما تدري ما الدخل (الميداني، ١٩٥٥: ١٣٧/١).

* جاورينا واخبرينا (الميداني، ١٩٥٥: ١٦٢/١) (قصته ان رجلين عشقا امرأة).

جفّ حجرك وطاب نشرك (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٣) (لا تدعو لها بالخير لانها دعت بأن لا تشم ولدا ابداً فيبل حجرها، و يغير نشرها).

* حسبك من شر سماعه (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٩٤)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٢/٦٢)، (المفضل بن سلمه، ١٩٦٠: ٢٦٥) (قالته ام الربيع بن زياد العبسي لقيس بن زهير العبسي الذي اراد ان يرتهنها بدرع كان له عند ابنها).

* اظن ماءكم هذا ماء عناق. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٤٤٣) (روى الميداني قصته بأن رجلا كانت امرأته تعشق رجلا اخر، وانها تمكنت من خداع زوجها حينما ضبطها والرجل يعانقها).

* صغراهن شراهن. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٣٩٨) (قالته امرأة كانت في زمن لقمان بن عاد).

* شرّيوميها واغواه لها. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٣٥٩)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٢/١٣٠) (قالته امرأة اخذت سبية من طسم يقال لها عنز).

* اذهبي فلا أندهُ سَرْبك (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٧٧) (كان يقال للمرأة في الجاهلية، فكانت تطلق بهذه العبارة).

* حين تقلين تدرين (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٠٤) (قاله رجل لامرأة بغّي وقد سرق مقلا تها).

* صَكًا ودرهمان لك (الميداني، ١٩٥٥: ١/٤٠٧)، (العسكري، ابو هلال، ١٩٦٤: ١/٥٧٩). (قالته امرأة بغّي استأجرها بدرهمين وأعجبها).

* بالرفاء والبنين (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٠٠)، (انزمخشري، ١٩٦٢: ٢/٦).

* إياك أعني فاسمعي ياجارة. (الواحدي، ١٩٧٥: ١٥٨)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٢/٣٣٤).

* ما وراءك ياعصام؟ (الواحدي، ١٩٧٥: ١٥٨)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٢/٣٣٤).

* لا عطر بعد عروس (الواحدي، ١٩٧٥: ١٩٥)، (الميداني، ١٩٥٥: ٢/١٦٢).

* تجوع الحرة ولا تأكل بثديها. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٢)، (العسكري، أبو هلال، ١٩٦٤: ١/٢٦١).

* لا ماءك ابقيت ولا حرك انقيت (الميداني، ١٩٥٥: ٢/٢١٧)، (الواحدي، ١٩٧٥: ١٩٠).

اما الامثال التي تتحدث عن وسائلهم المعيشية، ووسائل كسب الرزق فنستطيع ان نقرأ الامثال التالية:

* اتوى من دَيْن (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٥٠) (التوى: الهلاك).

* أتجر من عقرب (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٤٧) (عقرب اسم تاجر من تجار المدينة).

* أبخل من ذات النحيين (الواحدي، ١٩٧٥: ٤٤) (هي بائعة سمن فرطت في عرضها على ان تفرط بأحد نحي السمن).

* اسع بجدّ أو دع (الواحدي، ١٩٧٥: ٥٧)، (المفضل بن سلمه، ١٩٦٠: ٢٦٥).

* بجدك لا بكدك (الواحدي، ١٩٧٥، ١٩٧٥: ٧٧)، (المفضل بن سلمه، ١٩٦٠: ٢٥٢).

* بعد خيرتها تحتفظ (الواحدي، ١٩٧٥: ٨٠)، (الميداني، ١٩٥٥: ١/٩٢).

* ما له سبد ولا لبد (الميداني، ١٩٥٥: ٢/٢٧٠)، (العسكري، ابو هلال، ١٩٦٤: ٢/٢٦٧) (السبد: الشعر، اللبد: الصوف، اي ليس عنده غنم أو إبل).

* ما له صامت ولا ناطق (الضبي، ابو عكرمه، ١٩٧٤: ١١٢)، (المفضل بن سلمه، ١٩٦٠: ٤٠)(الصامت: الذهب والفضة، والناطق: الحيوان).

* ما له عافطة ولا نافطة (الميداني، ١٩٥٥: ٢/٢٦٨)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٢/٣٣٢) (أي ضائنة ولا ماعزة).

* ما له مال ولا عقار (الميداني، ١٩٥٥: ٢/٢٨٤)، (العسكري، ابو هلال، ١٩٦٤: ٢/٢٦٧) (العقار: النخل).

* ما له نسولة ولا قتوبة ولا جزوزة (الميداني، ١٩٥٥: ٢٦٦/٢) (أي ما يتخذ للنسل، ولا ما يعمل عليه، ولا شاة يجز صوفها).

* ابعاد الله خضراءهم (الميداني، ١٩٥٥: ١٠٤/١) (أي خصبهم ونعمتهم).

ومن الامثال التي تعرفنا بطبقات المجتمع الجاهلي:

* صبراً على مجامر الكرام (الميداني، ١٩٥٥: ٣٩٣/١)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ١٣٩/٢)، (الواحدي، ٧٥ظ١: ١٠١).

* عند النوى يكذبك الصادق (الميداني، ١٩٥٥: ٢٢/٢)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ١٦٩/٢).

* من مال جعد وجعد غير محمود (الواحدي، ١٩٧٥: ١٥٧)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٣٥١/٢).

* عبد قن (الضبي، ابو عكرمه، ١٩٧٤: ١٠٨)

* عند جهينة الخبر اليقين (الميداني، ١٩٥٥: ٣/٢)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ١٦٩/٢).

ولم تغفل الامثال ذكر الحرب، فقد حفل كتاب الامثال للمفضل الضبي بذكر قصص ايام العرب المرتبطة بالامثال المشهورة كقولهم: اشأم من داحس، وأشأم من البسوس، ولم يخل كتاب الميداني «مجمع الامثال» من ذكر امثال ترتبط بالحرب كقولهم:

* الحرب خدعة (الميداني، ١٩٥٥: ١٩٧/١)، (البكري، أبو عبيد، ١٩٧١: ١٥).

* الحرب سجال (الميداني، ١٩٥٥: ٢١٤/١).

* الحرب عشوم (العسكري، ابو هلال، ١٩٦٤: ٣٥٨/١)، (الميداني، ١٩٥٥: ٢٠٦/١).

وإن نصوص هذه الامثال، والقصص المرتبطة بها توضح موقف المجتمع العربي من الحرب، كما توضح طرائق القتال وفنونه عندهم.

ولم يكن العربي يعيش منفصلاً عن سير الحياة من قبله ومن حوله، فقد كانت له مصادره في رفده بأخبار الامم السابقة والانبياء عليهم السلام، وقد حفلت الامثال باشارات الى ذلك ومنها:

* تركته تغنيه الجرادتان (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٣١) (يرتبط هذا المثل بالنبي هود عليه السلام حينما كذبه قوم عاد).
* أتيه من قوم موسى (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٥٠).
* أحشك وتروثني (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢١٠) (يرتبط المثل بعيسى عليه السلام وحماره الذي علفه).
* الصمت حكم وقليل فاعله (الميداني، ١٩٥٥: ١/٤٠٢)، (العسكري، ابو هلال ١٩٦٤: ١/٥٦٩) (قاله لقمان الحكيم لداود عليه السلام).
* الشماتة لؤم (الميداني، ١٩٥٥: ١/٣٦٧)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ١/٣٢٧) (في المثل حديث عن أيوب عليه السلام).
* ابطش من دوسر (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/٩٤)، (الميداني، ١٩٥٥: ١/١١٨).
* أحاديث طسم وأحلامها (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٠٤).
* اظلم من الجُلَنْدَى (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/٩٤)، (الميداني، ١٩٥٥: ١/٤٤٧).

ولم يكن العربي في جاهليته ليغفل عن الطبيعة ومظاهرها المختلفة من حوله، فبها يهتدي، ومنها يخاف، وقد يقسم ببعضها و بعضها قد عُبد وقدّس. ومن الامثال التي تشير الى ذلك هى أو قصصها:

* دونه الكوكب العيوق (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٦٤).
* اضيع من قمر الشتاء. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٤٢٤)، (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/٢٧٧).
* اتلى من الشعرى (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٤٨)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ١/٣٦).

* جلاء الجوزاء (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٠).
* حلف بالسمر والقمر (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٠٨)، (العسكري، أبو هلال، ١٩٦٤: ١/٣٦٩).
* خير ليلة بالأ بد ليلة بين الزباني والاسد (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٤٠)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٢/٧٨).
* اخلفك الوزن وسهل لا يرى. (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٤٦).
* ذهبت صيف لأديانها (الميداني، ١٩٥٥: ١/٧٩)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٢/٨٧).
* اجعلوا ليلكم ليل انقد (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٦).
* باتت و بات ليلها دبى دبي (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٩).
* اخفى مما يخفى الليل (الميداني، ١٩٥: ١/٢٥٥)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ١/١٠٥).

واما البحر، وقد زعم بعض الباحثين ان العرب لم يعرفوه فهم امة صحراء، فقد ورد في امثالهم، كما ورد ذكر الحوت، كما ورد ذكر التمساح الذي يعيش في الانهار والبحيرات، و يبدو أنه من الروافد الحضارية عليهم. ومن الامثال التي تسعفنا في هذا المجال:

* يداك أوكتا وفوك نفخ (الميداني، ١٩٥٥: ٢/٢١٤)، (الضبي، ابو عكرمة، ١٩٧٤: ٤٨).
* جاور ملكاً أو بحراً (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٧٠)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ٢/٤٩).
* خاطىء بحرك (الميداني، ١٩٥٥: ١/٤٣٤).
* دأماء لا يقطع بالارمات (الميداني، ١٩٥٥: ١/٢٧٠).
* حوتاً تماقس (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٩٨).
* اكل من حوت (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ١/٧٢)، (الزمخشري، ١٩٦٢: ١/٦).
* بيت به الحيتان والأنوق . (الميداني، ١٩٥٥: ١/١٠٩)

* حتى يؤلف بين الضب والنون (الميداني، ١٩٥٥: ٢١٣/١)، (الزمخشرى، ١٩٦٢: ٥٨/٢)

* أظمأ من حوت (الأصبهاني، حمزة، ١٩٦٠: ٢٩٣/١)، (الميداني، ١٩٥٥: ٤٤٧/١)

* أروى من حوت (الاصبهاني، حمزه، ١٩٦٠: ٢٠٩/١)، (الميداني، ١٩٥٥: ٣١٥/١).

واخيراً فان الامثال لم تغفل الدهر والموت، وتسعفنا الامثال التالية:

* حيْن ومن يملك اقداح الحين (الميداني، ١٩٥٥: ٢٠٣/١)

* اذا جاء الحين غطى العين (الميداني، ١٩٥٥: ٢٠/١)، (الواحدي، ١٩٧٥: ٦١).

* حال الاجل دون الامل (الميداني، ١٩٥٥: ٢٠٤/١)

* حال الجريض دون القريض (الميداني، ١٩٥٥: ٢٠٣/١).

* أصبر من قضيب (الميداني، ١٩٥٥: ٤٠٨/١).

* الدهر ابلغ فى النكير (الميداني، ١٩٥٥: ٢٧٢/١).

* الدهر اورد مستبد . (الزمخشري، ١٩٦٢: ٣١٨/١)

* الدهر انكب لا يلبّ (الميداني، ١٩٥٥: ٢٧٢/١).

* الدهر ارود ذو غِيَر (الزمخشري، ١٩٦٢: ٣١٨/١).

* الدهر أزور مستبد (الزمخشري، ١٩٦٢: ٣١٨/١).

* الدنيا دول فما كان لك اتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك (المفضل بن سلمه، ١٩٦٠: ٢٦٣).

الهوامش

(١) انظر سورة الحج اية ٤٣، سورة الزمر آية ٢٧، سورة العنكبوت اية ٤٣، سورة البقرة ايه ٢٦، سورة ابراهيم اية ٢٥، سورة النحل اية ١١٢.

(٢) ــ (١٠) أنظر امثال المفضل الضبي بتحقيق احسان عباس الصفحات ١٨٥، ١٠٩، ١٤٩، ١١١، ١٣٢، ٨٥، ٨٦، ١٤٦، ١٢٧.

(١١) انظر للباحث البحث المنشور بمجلة مجمع اللغة الاردني (١٩٨١) بعنوان: القيم والمثل العليا في المجتمع الجاهلي.

(١٢) لسان العرب مادة (حكم).

(١٣) القاموس المحيط مادة (حكم).

(١٤) جورج صدقني: مجلة «المعرفة» السورية، العدد ٢٠٤ ص ١٧

(١٥) هذه الارقام والاحصائيات التي سبقت من معجم للامثال العربية القديمة للباحث يصدر عن دار العلوم بالرياض قريباً ومن دراستين موسعتين حول الامثال للباحث نفسه.

(١٦) جورج صدقني، مجلة المعرفة، العدد ٢٠٢ (١٩٧٩).

المراجع العربية

ــ احمد امين
فجر الاسلام
مصر، ١٩٥٨

ــ الاصبهاني، حمزة
الدرة الفاخرة
دار المعارف بمصر، ١٩٦٠

ــ الانباري، ابوبكر محمد بن القاسم
الزاهر
تحقيق حاتم الضامن
بغداد، ١٩٧٩م.

ــ البكري، ابوعبيد
فصل المقال
تحقيق احسان عباس وعبد المجيد عابدين
بيروت، ١٩٧١م

ــ بلاشير
تاريخ الادب العربي
ترجمة ابراهيم كيلاني
دمشق، ١٩٥٦ م.

ـ الجاحظ
البيان والتبيين
تحقيق عبد السلام هارون
مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣ ١٩٦٨.
ـ ابن رشيق
العمدة
مصر، ط ٢: ١٩٥٥م.
ـ الزمخشري
المستقصي في الامثال
حيدر اباد الدكن، ١٩٦٢.
ـ زولهايم
الامثال العربية القديمة
ترجمة رمضان عبد التواب
بيروت، ١٩٧١ م.
ـ السدوسي، ابوفيد
امثال السدوسي
تحقيق احمد الضبيب
ـ ابن سلام، ابوعبيد القاسم
امثال ابي عبيد القاسم ابن سلام
الرياض، ١٩٧٠م.
ـ السيوطي
المزهر
ـ الضبي، ابوعكرمة
الامثال
تحقيق رمضان عبد التواب
دمشق، ١٩٧٤ م.
ـ الضبي، المفضل
امثال العرب
تحقيق احسان عباس
بيروت، ١٩٨١ م.
ـ ضيف، شوقي
الفن ومذاهبه في النثر العربي
القاهرة، الهيئة العامة للكتاب.

ـ الطبري
تاريخ الطبري
دار المعارف بمصر
ـ طرفة بن العبد
ديوانه
تحقيق علي الجندي
مصر، ١٩٥٨ م.
ـ ابن عبد ربه
العقد الفريد
تحقيق احمد امين ورفاقه
القاهرة، ط ٣: ١٩٦٥ م.
ـ العبدري، ابو المحاسن
تمثال الامثال
تحقيق اسعد ذبيان
بيروت، ١٩٨٢.
ـ العسكري، ابو هلال
جمهرة الامثال
تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطامش
القاهرة، ١٩٦٤ م.
ـ القالي، ابو علي
كتاب افعل
تحقيق محمد بن عاشور
تونس ١٩٦٢ م.
ـ المفضل بن سلمه
الفاخر ـ تحقيق عبد العليم الطحاوي
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
مصر، ١٩٦٠.
ـ الميداني
مجمع الامثال
تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد
القاهرة ١٩٥٥ م.
ـ ابن النديم
الفهرست

طبعة طهران
تحقيق رضا تجدد ١٩٧٩
ـ الواحدي
الوسيط في الامثال
تحقيق عفيف عبد الرحمن
الكويت ١٩٧٥ م
ـ ابن وهب، الحسن
البرهان في وجوه البيان
ـ ياقوت الحموي
معجم الادباء
بيروت، دار المشرق، د.ت
ـ اليوسي، الحسن
زهر الاكم في الامثال والحكم
تحقيق محمد حجي ومحمد الاخضر
الدار البيضاء، ١٩٨١م.

المراجع الاجنبية

Proverb Lore,
By: Edward Hulme,
London 1902.

Oriental Proverbs:
By: John Bowen
Lozac 1976.

Bower, John. **Oriental Proverbs:** Lozac, 1976.

Hulme, Edward. **Proverb Lore.** London, 1902.